بركة الأولياء

رواية صوفية عرفانية

محمد أحمد الصغير علي عيد

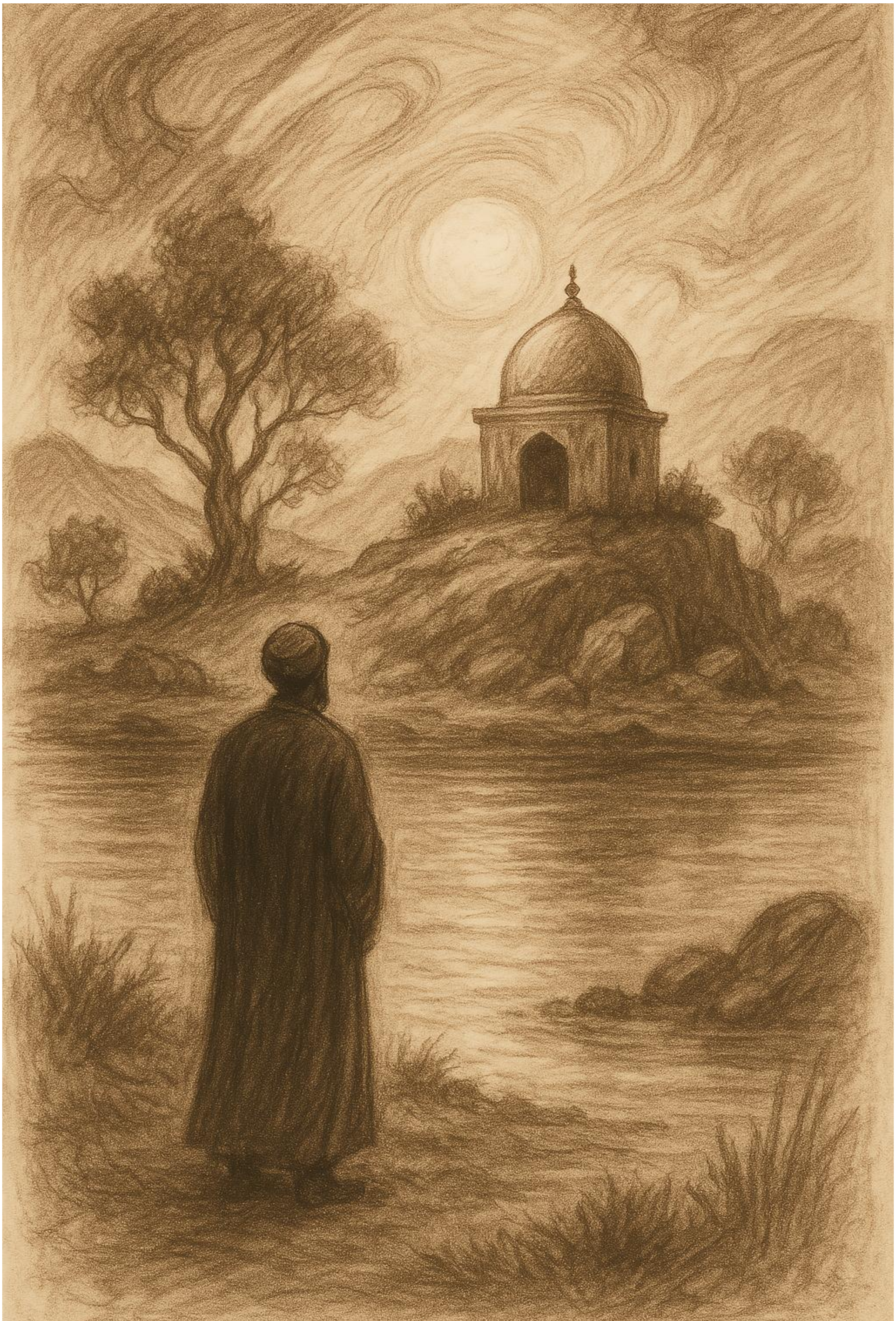

بركة الأولياء

رحلة البحث عن سيدي الشيخ محمد عيد

رواية صوفية عرفانية

تأليف

محمد أحمد الصغير علي عيد

إهــداء

إلى روح أبي الطاهرة التي عانقت السماء... رحمك الله يا أبي وأسكنك فسيح جناته، وجعل قبرك روضة من رياض الجنة.

إلى أمي الغالية... نبع الحنان الذي لا ينضب، وشمس الدفء التي لا تغيب. شفاكِ الله وعافاكِ، وألبسكِ ثوب الصحة والعافية، وأطال في عمرك على طاعته.

إلى زوجتي الحبيبة... رفيقة الدرب وشريكة الحياة، سكني وسكينتي، وملاذي بعد الله.

إلى فلذات كبدي وثمرات فؤادي... أبنائي الأحباء:
روفيدة... نور قلبي وبهجة روحي
عبد الرحمن... فخري وعزوتي وامتداد اسمي
زينب... ريحانتي وزهرة حياتي
عبد العزيز... أملي المتجدد وفرحتي الدائمة

بارك الله فيكم جميعاً، وحفظكم من كل سوء، وجعلكم ذخراً للإسلام والمسلمين.

إلى إخوتي وأخواتي... سندي وعضدي في هذه الحياة.

إلى أصدقائي وزملائي... من شاركوني لحظات العمر، وتقاسموا معي أفراحه وأتراحه.

وإلى أرواح الأولياء الصالحين الذين استلهمت من سيرهم وكراماتهم هذا العمل:
سيدي الشيخ محمد عيد
سيدي الشيخ الصايم أبو مدين
سيدي الشيخ محمد المزاول
سيدي الشيخ علي الروبي
سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي

رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

إلى هؤلاء جميعاً... أهدي باكورة أعمالي الأدبية "بركة الأولياء"، سائلاً المولى عز وجل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ الكريم.

تقديم بقلم المؤلف

عزيزي القارئ،

بين يديك الآن رواية "بركة الأولياء"، باكورة أعمالي الأدبية التي أقدمها إليك بكل الحب والشغف. هذه الرواية ليست مجرد عمل خيالي، بل هي مزيج فريد من الواقع والخيال، من التاريخ والأسطورة، من الحقيقة والواقعية السحرية.

في هذه الرواية، أخذتك في رحلة إلى عالم الأولياء والكرامات، عالم يتجاوز حدود المادة والعقل، عالم يحكمه قانون واحد: الحب. وقد استلهمت أحداثها من قصص حقيقية تناقلتها الأجيال في قريتي الصغيرة، أبشواي، عن سيدي الشيخ محمد عيد وغيره من الأولياء الصالحين.

سيدي الشيخ محمد عيد، الذي تربطني به صلة قرابة بعيدة، كان شخصية حقيقية عاشت في النصف الأول من القرن العشرين، وترك أثراً عميقاً في حياة الناس وقلوبهم. كان رجلاً بسيطاً في مظهره، عميقاً في جوهره، زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة. وقد تناقل الناس عنه قصصاً وكرامات كثيرة، بعضها موثق، وبعضها متداول شفاهياً.

في هذه الرواية، مزجت بين هذه القصص الواقعية وبين عناصر من الخيال والواقعية السحرية، لأنسج نصاً أدبياً يحمل في طياته قيماً روحية وإنسانية

عميقة. فالواقعية السحرية ليست هروباً من الواقع، بل هي غوص في أعماقه، وكشف لطبقاته المختلفة، ورؤية لما وراء الظاهر والمرئي.

الشخصيات في هذه الرواية، مثل مغاوري والأستاذ عبد الحميد وعبد الرحمن والبدوي، مستوحاة من شخصيات حقيقية عاشت في أبشواي، وكان لها علاقة بسيدي الشيخ محمد عيد. أما كريم، بطل الرواية، فهو شخصية خيالية تمثل الإنسان المعاصر الذي يبحث عن المعنى والحقيقة في عالم مادي متسارع.

القصص والكرامات المذكورة في الرواية، مثل قصة الزكيبة وقصة البدوي مع القهوة، مستوحاة من قصص متداولة عن سيدي الشيخ وغيره من الأولياء. وقد أضفت إليها عناصر خيالية وتفاصيل سردية لتكون أكثر تأثيراً وجاذبية.

أما الأماكن، مثل مقام سيدي الشيخ ومدينة أبشواي والفيوم، فهي أماكن حقيقية يمكن زيارتها والتعرف عليها. وقد حاولت أن أنقل روحها وأجواءها بكل أمانة وصدق.

في هذه الرواية، ستجد نفسك تنتقل بين عالمين: عالم الواقع المادي الملموس، وعالم الروح والكشف والإلهام. وستجد نفسك تتساءل أحياناً: هل هذا حقيقي أم خيال؟ هل هذا ممكن أم مستحيل؟ وهذا هو جوهر الواقعية السحرية: أن تجعل القارئ يتردد بين التفسير الواقعي والتفسير الخارق للطبيعة.

لكن وراء كل هذه القصص والأحداث، هناك رسالة أساسية أردت إيصالها: أن الإيمان ليس ضد العقل، بل هو تكامل معه. وأن التصوف الحقيقي ليس انعزالاً عن الحياة، بل هو انخراط فيها بروح إيمانية عميقة. وأن الكرامة الحقيقية ليست في خرق قوانين الطبيعة، بل في خرق قوانين القلب البشري، في التحول من الشك إلى اليقين، ومن الخوف إلى الحب، ومن الأنانية إلى الإيثار.

أتمنى أن تجد في هذه الرواية متعة وفائدة، وأن تكون سبباً في تأملك في معنى الحياة والإيمان والحب. وأتمنى أن تكون بداية لرحلة طويلة معك، عبر أعمال أدبية أخرى، نستكشف فيها معاً عوالم الروح والفكر والإبداع.

مع خالص المودة والتقدير،

محمد أحمد الصغير علي عيد

الجهراء/الكويت

4 أبريل 2025

"القلوب أوعية،

وخير الأوعية أوعاها، فاحفظ عن الله ما أوعاك."

ابن عطاء الله السكندري /الحكم العطائية

الفصل الأول: اللقاء الأول

كانت شمس الفيوم الذهبية تتسلل بين السحب الخفيفة، ملقية بضوئها على صفحة بحيرة قارون المتلألئة كمرآة عملاقة تعكس زرقة السماء. كنت أقود سيارتي عبر طريق ريفي متعرج، تحيط به حقول القصب الخضراء المتمايلة مع نسمات الصباح الباكر، كأنها تؤدي رقصة صامتة احتفالاً بيوم جديد. رائحة التراب المبلل بندى الصباح تملأ المكان، مختلطة بعبق الياسمين البري المنتشر على جانبي الطريق.

بجانبي جلس خالي، الحاج محمود عاشور، رجل في السبعينيات من عمره، وجهه المجعد يحمل آثار سنوات طويلة من الحكمة والتجارب، وعيناه البنيتان الغائرتان تحملان بريقاً غريباً هذا الصباح. كانت أصابعه النحيلة تسبح بمسبحة خشبية قديمة، وشفتاه تتحركان بذكر صامت، كأنه في حوار مستمر مع عالم لا أراه.

"هل تعرف يا كريم، أن هذه المنطقة مباركة منذ آلاف السنين؟" قال خالي فجأة، وهو يشير بيده المرتعشة قليلاً نحو الأفق الممتد أمامنا، حيث تلتقي الأرض الخضراء بالسماء الزرقاء في خط رفيع يفصل بين عالمين.

هززت رأسي مبتسماً بتهذيب، وأنا أركز على الطريق المتعرج. كنت أعرف أن خالي سيبدأ واحدة من قصصه التي لا تنتهي عن الأولياء والصالحين، تلك القصص التي سمعتها مراراً وتكراراً منذ طفولتي. لم أكن أؤمن كثيراً بكرامات الأولياء، وكنت أرى حديث الناس عنهم مجرد مبالغات صنعها الزمن وزينتها الذاكرة الشعبية، أساطير تناقلتها الأجيال لتمنح الأمل في عالم قاسٍ.

أنا **كريم عبد الرحمن**، مهندس كمبيوتر في الثلاثين من عمري، أؤمن بالمنطق والعلم، وأرى العالم من خلال شاشة حاسوبي ومعادلات برمجية واضحة. عالمي مبني على الأرقام والخوارزميات، على الأسباب والنتائج، على ما يمكن إثباته وقياسه. لا مكان فيه للغيبيات والكرامات وقصص الأولياء التي يتناقلها أهل الريف.

"سيدي الشيخ محمد عيد كان يعرف هذه الطرقات شبراً شبراً،" تابع خالي حديثه، وصوته يحمل نبرة من الإجلال والحب، "كان يمشي حافي القدمين أحياناً، يزور الفقراء والمحتاجين، يحمل لهم الخبز والدواء والكلمة الطيبة. كان يقول دائماً: 'القلوب مثل الأرض، إذا سقيتها بالحب أنبتت خيراً'."

"وكيف عرفته يا خالي؟" سألته، محاولاً إظهار اهتمام لم أكن أشعر به حقاً. كانت هذه طريقتي في إرضاء خالي، الرجل الطيب الذي رعاني بعد وفاة والدي، والذي كان يصر على أن أرافقه في زيارته الشهرية لمقام الشيخ محمد عيد.

ابتسم خالي ابتسامة واسعة كشفت عن أسنان قليلة متباعدة، وبدأت عيناه تلمعان بذكريات قديمة. "كنت صبياً صغيراً عندما رأيته للمرة الأولى. كان أبي، الله يرحمه، يأخذني إلى سوق أبشواي كل خميس. وفي أحد الأيام، رأيت الناس يتجمهرون حول رجل يرتدي جلباباً أبيض بسيطاً. كان يتحدث بصوت هادئ، لكن كلماته كانت تصل إلى قلوب الجميع. سألت أبي من هذا الرجل، فقال لي: 'هذا سيدي محمد عيد، رجل من أهل الله'."

كانت عينا خالي تلمعان وهو يسترجع ذكرياته، وشعرت للحظة بشيء يتحرك في داخلي، شيء لم أستطع تفسيره. ربما كان إعجاباً بإيمان هذا الرجل العجوز البسيط، أو ربما كان حنيناً لزمن بسيط لم أعشه، زمن كانت فيه الكلمة الطيبة تكفي لجمع الناس وتوحيد قلوبهم.

"ها قد وصلنا،" قال خالي فجأة، مشيراً إلى لافتة متواضعة كُتب عليها "مقام سيدي الشيخ محمد عيد - أبوجنشو" بخط يدوي باهت.

أوقفت السيارة أمام بناء أبيض متوسط الحجم، تعلوه قبة خضراء صغيرة. كان المكان هادئاً بشكل غريب، رغم وجود عدد من الزوار يدخلون ويخرجون. أشجار النخيل المحيطة بالمقام تلقي بظلالها على الأرض، مشكلة بقعاً من الظل والنور تتراقص مع حركة أوراقها. في الجوار، كانت هناك بئر قديمة محاطة بسور حجري منخفض، وبجانبها جلس بعض كبار السن يتبادلون أطراف الحديث بصوت خافت.

ساعدت خالي على النزول من السيارة، وأسندته حتى وصلنا إلى باب المقام. كان يتكئ على عصاه الخشبية، لكن خطواته كانت أكثر حيوية من المعتاد، كأن المكان يمنحه طاقة جديدة.

"هل تعتقد أن سيدي الشيخ محمد عيد مبسوط بزيارتنا اليوم؟" سألني خالي بنبرة طفولية لم أعهدها منه، وعيناه تلمعان بانتظار إجابتي.

ابتسمت ولم أجد رداً مناسباً، فقلت متحايلاً على السؤال: "أكيد يا خالي، كيف لا يكون مبسوطاً ونحن جئنا لنزوره ونتذكره؟"

هزّ خالي رأسه وقال بصوت خافت، كأنه يبوح بسر: "أنا لم أنسه يوماً، إنه في قلبي دائماً. كلما ضاقت بي الدنيا، أتذكر كلماته: 'الضيق يزول، والفرج يأتي، والله لا ينسى عبده أبداً'."

عندما دخلنا المقام، شعرت براحة غريبة لم أتوقعها. كان الهواء داخل المكان مختلفاً، أكثر نقاءً، وكأنه محمل برائحة الياسمين والبخور. الضوء يتسلل من نوافذ صغيرة مزينة بزجاج ملون، راسماً أشكالاً متراقصة على الأرضية الرخامية. في وسط الغرفة، كان هناك ضريح مغطى بقماش أخضر مطرز بآيات قرآنية بخيوط ذهبية، تلتمع تحت ضوء المصابيح المتدلية من السقف.

جلس خالي على سجادة قريبة من الضريح، وأغمض عينيه، وبدأ يتمتم بكلمات لم أستطع سماعها. جلست بجانبه، متأملاً في ملامحه الهادئة، بينما هو غارق في الذكر والدعاء. كان وجهه يشع نوراً غريباً، وكأن سنوات العمر قد انحسرت عنه فجأة، وعاد شاباً يافعاً ممتلئاً بالحيوية والإيمان.

بدأت عيناي تجولان في المكان، محاولاً فهم سر هذا الشعور بالراحة الذي انتابني منذ دخولي. على الجدران، كانت هناك لوحات تحمل أسماء زوار من مختلف أنحاء مصر، بل ومن بلدان عربية أخرى. كتابات بخط اليد تشكر الشيخ على كرامات وبركات، قصص شفاء من أمراض، وحكايات عن أمنيات تحققت.

في إحدى الزوايا، كان هناك رجل عجوز يجلس على كرسي خشبي، يراقب الزوار بعينين ثاقبتين. كان يرتدي جلباباً أبيض نظيفاً وعمامة خضراء، ولحيته البيضاء تنسدل على صدره. عندما التقت عيناي بعينيه، ابتسم لي ابتسامة غامضة، وأشار لي بالاقتراب.

ترددت للحظة، ثم نهضت وتوجهت نحوه، مدفوعاً بفضول غريب.

"أول مرة تزور المقام؟" سألني بصوت هادئ عميق، يحمل نبرة من الحكمة والمعرفة.

"نعم، جئت مع خالي،" أجبت، مشيراً نحو الحاج محمود الذي كان لا يزال غارقاً في دعائه.

"الحاج محمود من محبي سيدي الشيخ القدامى،" قال الرجل، وكأنه يعرف خالي منذ زمن بعيد، "يأتي كل شهر منذ سنوات طويلة."

"هل تعرف خالي؟" سألته متفاجئاً، فخالي لم يذكر لي أن له معارف في المقام.

"أعرف كل من يحب سيدي الشيخ،" أجاب ببساطة، وعيناه تلمعان بنظرة غامضة، "أنا مغاوري، خادم المقام."

"مغاوري؟" تساءلت، وفجأة تذكرت اسماً ذكره خالي مراراً في قصصه، "هل أنت الذي بنى المقام بعد وفاة الشيخ؟"

ابتسم الرجل، وبدت أسنانه البيضاء متناقضة مع بشرته السمراء المجعدة. "نعم يا بني، أنا الذي تشرفت ببناء هذا المقام. كنت صديق سيدي الشيخ وتلميذه."

شعرت بفضول غريب، دفعني للجلوس على الأرض أمامه. "هل يمكنك أن تحدثني عنه؟ خالي يتحدث عنه كثيراً، لكنني لا أعرف عنه الكثير."

نظر مغاوري إلي بعمق، وكأنه يقرأ أفكاري، يرى شكوكي وتساؤلاتي. "هل شعرت بشيء غريب عندما دخلت المقام؟"

لم أرد أن أبالغ، لكنني لم أستطع إنكار إحساسي العميق بالراحة، فهززت رأسي موافقاً.

ابتسم مغاوري وقال: "سيدي محمد عيد كان رجلاً من الله، قلبه معلق بالسماء، لكن قدميه ثابتتان على الأرض. كان يربي الناس قبل أن يكون ولياً، وكان يفهم الحياة بعمق نادر."

"كيف أصبح ولياً؟ هل وُلِد كذلك؟" سألته بشغف لم أتوقعه من نفسي، وكأن شيئاً في داخلي كان ينتظر هذه اللحظة، ينتظر أن يسمع قصة هذا الرجل الغامض.

ضحك مغاوري وقال: "لا، لا يولد أحد ولياً، لكنه كان دائماً مختلفاً..."

قاطعنا صوت خالي الذي كان قد انتهى من دعائه وكان يبحث عني. "كريم، أين أنت يا بني؟"

"هنا يا خالي، مع الحاج مغاوري."

عندما رأى خالي مغاوري، اتسعت عيناه وهرع نحوه، وانحنى ليقبل يده. "الحاج مغاوري! لم أكن أعلم أنك موجود اليوم."

"الحاج محمود، صديقي القديم،" قال مغاوري بدفء، وهو يمسك بيد خالي بين يديه، "كيف حالك؟"

"بخير والحمد لله، ببركة سيدي الشيخ ودعواتك."

جلس خالي بجانبي، وبدأ الرجلان يتبادلان أطراف الحديث عن أحوال القرية والناس. كنت أستمع إليهما بصمت، وشيء ما في داخلي بدأ يتغير. كانت هناك قصة أكبر مما كنت أتخيل، وبدأت أشعر برغبة غريبة في معرفتها.

قبل أن نغادر، نظر إلي مغاوري وقال: "إذا أردت أن تعرف المزيد عن سيدي الشيخ، تعال إلي يوم الجمعة القادم. سأحكي لك قصته كما لم يسمعها أحد من قبل."

في طريق العودة، كان خالي صامتاً، غارقاً في أفكاره. أما أنا، فقد كنت أفكر في كلمات مغاوري، وفي الإحساس الغريب الذي شعرت به في المقام. كان هناك شيء ما يجذبني، شيء لا يمكنني تفسيره بالمنطق أو العلم.

"سأعود يوم الجمعة،" قلت فجأة، كاسراً الصمت.

نظر إلي خالي بدهشة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة. "أرأيت؟ سيدي الشيخ يختار من يزوره، وليس العكس."

لم أرد عليه، لكنني في داخلي كنت أعلم أن رحلتي مع سيدي الشيخ محمد عيد قد بدأت للتو، وأنها ستغير حياتي بطريقة لم أكن أتخيلها.

"لا يُنير القلب إلا من سراج التقوى، ولا يُنير السر إلا من نور الإخلاص."

- الإمام الغزالي

الفصل الثاني: حكاية مغاوري

عندما عدت إلى القاهرة، حاولت أن أنسى تجربتي في مقام الشيخ محمد عيد وأعود إلى حياتي الطبيعية. كنت أعمل على مشروع برمجي كبير لإحدى الشركات متعددة الجنسيات، وكان يجب أن أركز كل طاقتي عليه. لكن صورة المقام، ووجه مغاوري، وكلماته الغامضة، كانت تطاردني في أحلامي.

كنت أستيقظ في منتصف الليل، وصدى كلماته يتردد في أذني: "إذا أردت أن تعرف المزيد عن سيدي الشيخ، تعال إلي يوم الجمعة القادم." كان هناك شيء في صوته، في نظراته، في الطريقة التي تحدث بها عن الشيخ، جعلني أشعر بأنه يحمل سراً كبيراً، سراً يريد مشاركته معي.

في صباح الخميس، وبينما كنت أجلس في مكتبي أمام شاشة الكمبيوتر، أحاول التركيز على كتابة كود برمجي معقد، وجدت نفسي أفتح متصفح الإنترنت وأكتب في محرك البحث: "الشيخ محمد عيد - أبوجنشو - الفيوم".

ظهرت بعض النتائج المتفرقة، مقالات قصيرة عن مقام الشيخ، وبعض المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي من زوار المقام. لكن لم يكن هناك الكثير من المعلومات الموثقة عن حياة الشيخ نفسه. كان وكأنه شخصية أسطورية، تعيش في ذاكرة الناس وقلوبهم، لكن التاريخ الرسمي لم يحتفظ بها.

أغلقت الكمبيوتر، وشعرت بإحباط خفيف. كنت أريد أن أفهم، أن أعرف من كان هذا الرجل الذي ما زال يؤثر في حياة الناس بعد عقود من وفاته. لماذا يأتي الناس من كل مكان لزيارة مقامه؟ ما سر هذه الكرامات التي يتحدثون عنها؟

في تلك اللحظة، اتخذت قراراً. سأذهب إلى الفيوم غداً، سأقابل مغاوري، وسأستمع إلى قصته. ليس لأنني أؤمن بالأولياء والكرامات، بل لأنني أريد أن أفهم هذه الظاهرة، أن أفهم لماذا يتعلق الناس بهذه القصص، وربما، في أعماقي، كنت أريد أن أفهم سر هذا الشعور الغريب الذي انتابني في المقام.

في مساء ذلك اليوم، وجدت نفسي أحزم حقيبة صغيرة وأستقل سيارتي متجهاً نحو الفيوم مرة أخرى. لم أخبر أحداً بوجهتي، حتى خالي. كان هناك شيء شخصي في هذه الرحلة، شيء أردت أن أكتشفه بنفسي.

الطريق إلى الفيوم كان هادئاً في تلك الساعة المتأخرة من الليل. القمر يضيء السماء بنوره الفضي، والنجوم تتلألأ كأنها تراقبني. كنت أستمع إلى موسيقى هادئة، وأفكر في الأسئلة التي سأطرحها على مغاوري. كنت أريد أن أعرف كل شيء عن الشيخ محمد عيد، عن حياته، عن كراماته، عن تأثيره في حياة الناس.

وصلت إلى أبشواي في المساء، ونزلت في منزلنا القديم، منزل العائلة والذكريات. كان المنزل مهجوراً معظم أيام السنة، نزوره فقط في الإجازات أو المناسبات. لكنه

كان محتفظاً بروحه الدافئة، بذكريات طفولتي، بصوت ضحكات أبي وأمي التي ما زالت تتردد في أرجائه.

من نافذة غرفتي، كنت أستطيع رؤية بحيرة قارون تتلألأ تحت ضوء القمر، مثل مرآة عملاقة تعكس جمال السماء. جلست على السرير، وأخرجت دفتر ملاحظاتي، وبدأت أكتب أسئلة أردت أن أطرحها على مغاوري. كنت أريد أن أفهم، أن أعرف الحقيقة وراء الأساطير.

في صباح الجمعة، استيقظت باكراً وتوجهت إلى المقام. كان المكان مزدحماً أكثر من المرة السابقة، مع وجود العديد من الزوار الذين جاؤوا لأداء صلاة الجمعة والتبرك بزيارة المقام. بحثت عن مغاوري بين الحشود، لكنني لم أجده في مكانه المعتاد.

سألت أحد خدام المقام عنه، فأشار إلى منزل صغير مجاور للمقام. "الحاج مغاوري يستريح الآن، يمكنك زيارته بعد صلاة الجمعة."

انتظرت بفارغ الصبر، وبعد الصلاة، توجهت إلى المنزل الصغير وطرقت الباب. فتح لي شاب في العشرينات من عمره، له ملامح تشبه ملامح مغاوري، نفس العينين الثاقبتين ونفس الابتسامة الهادئة.

"أنا أبحث عن الحاج مغاوري،" قلت له.

ابتسم الشاب وقال: "جدي ينتظرك."

دخلت إلى غرفة بسيطة مفروشة بحصير وبعض الوسائد. كان مغاوري جالساً على سجادة صلاة، يسبح بمسبحة خشبية قديمة. عندما رآني، ابتسم وأشار لي بالجلوس.

"أعلم أنك ستأتي،" قال ببساطة، كأنه كان ينتظرني.

"كيف عرفت؟" سألته متفاجئاً، فأنا لم أخبر أحداً بقراري.

"سيدي الشيخ أخبرني،" أجاب، وعيناه تلمعان بنظرة غامضة.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. "لكن... الشيخ متوفى منذ سنوات طويلة."

"الموت لا ينهي كل شيء يا بني. الأولياء لهم حياة أخرى بعد الموت، حياة لا نفهمها نحن البشر العاديين."

لم أعرف كيف أرد، فصمت وانتظرت أن يكمل حديثه.

"جئت لتعرف قصة سيدي الشيخ، أليس كذلك؟" سألني.

"نعم، أريد أن أفهم... من كان محمد عيد؟ كيف صار ولياً يتحدث عنه الناس وكأنه لم يفارقهم لحظة؟"

أغمض مغاوري عينيه للحظة، وكأنه يستجمع ذكرياته، ثم بدأ يحكي بصوت عميق هادئ، كأنه يروي حكاية قديمة مقدسة:

"ولد محمد عيد في قرية صغيرة قرب أبشواي في عام 1887. كانت القرية بسيطة، بيوت من الطين تتراص على ضفاف ترعة صغيرة، وحقول خضراء تمتد حتى الأفق. كان والده فلاحاً بسيطاً، يكدح من الفجر حتى الغروب ليوفر لقمة العيش لأسرته، وكانت أمه امرأة صالحة تحفظ القرآن وتعلمه لأطفال القرية.

منذ صغره، كان محمد مختلفاً عن أقرانه. كان هادئاً، متأملاً، يحب الجلوس وحيداً تحت شجرة التوت الكبيرة في وسط القرية، يراقب الناس والطبيعة من حوله. كان يسأل أسئلة غريبة لطفل في سنه، أسئلة عن الله والكون والحياة والموت.

في سن العاشرة، بدأ يظهر عليه حب شديد للقرآن والعلم. كان يذهب إلى الكُتّاب في الصباح الباكر، ويبقى هناك حتى المساء، يحفظ ويتعلم. وفي سن الخامسة عشرة، كان قد حفظ القرآن كاملاً، وبدأ يدرس الفقه والحديث على يد شيخ القرية.

لكن محمد لم يكتف بالعلم النظري. كان يريد أن يفهم الحياة، أن يعيشها بكل تفاصيلها. فبدأ يساعد والده في الحقل، ويعمل مع الصيادين في البحيرة، ويجلس مع الشيوخ والعجائز يستمع إلى حكاياتهم وخبراتهم.

في سن العشرين، حدثت معه واقعة غيرت مجرى حياته. كان يسير على ضفاف البحيرة في ليلة مقمرة، عندما سمع صراخاً يأتي من الماء. كان هناك صبي صغير يغرق، وبدون تفكير، قفز محمد إلى الماء وأنقذه. لكن التيار كان قوياً، وبعد أن وضع الصبي على الشاطئ، جرفه التيار إلى عمق البحيرة.

يقول من شهدوا الواقعة إنه غاب تحت الماء لمدة طويلة، حتى ظنوا أنه قد مات. لكنه ظهر فجأة، وكان وجهه يشع نوراً غريباً. منذ تلك الليلة، بدأ الناس يلاحظون تغيراً في محمد. أصبح أكثر هدوءاً، أكثر حكمة، وكأنه رأى شيئاً في أعماق البحيرة غير حياته إلى الأبد.

بدأ يتحدث إلى الناس عن الحب والتسامح والإيمان الحقيقي. كان كلامه بسيطاً، لكنه كان يلمس القلوب مباشرة. بدأ الناس يأتون إليه من القرى المجاورة، يطلبون نصيحته، يستمعون إلى كلماته، يلتمسون بركته.

لم يدع محمد عيد أبداً أنه ولي أو صاحب كرامات. كان يقول دائماً: 'أنا عبد فقير إلى الله، أحاول أن أفهم طريقي إليه'. لكن الناس كانوا يرون فيه شيئاً مختلفاً، شيئاً يتجاوز الكلمات والمظاهر.

بدأت تنتشر قصص عن كراماته. يقولون إنه كان يعرف ما في قلوب الناس، وأنه كان يظهر في أماكن متعددة في نفس الوقت، وأنه كان يشفي المرضى بمجرد لمسة من يده أو كلمة من فمه. لكنه كان يرفض دائماً الحديث عن هذه الأمور، ويقول: 'الكرامة الحقيقية هي الاستقامة على طريق الله'.

في عام 1952، وفي ليلة من ليالي رمضان، جمع محمد عيد تلاميذه وأحبابه، وقال لهم: 'غداً سألتقي بربي'. لم يصدقه أحد، فقد كان يبدو بصحة جيدة. لكنه في صباح اليوم التالي، وبعد صلاة الفجر، جلس تحت شجرة التوت التي كان يحبها، أغمض عينيه، وفاضت روحه إلى بارئها.

كنت أنا أول من وجده. كان وجهه يشع نوراً وسلاماً، وكانت ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه. دفناه في مقبرة القرية، وبعد أيام، بدأ الناس يرون رؤى وأحلاماً عنه. كان يظهر لهم، يطمئنهم، يرشدهم.

بعد سنة من وفاته، رأيته في المنام. قال لي: 'يا مغاوري، ابن لي بيتاً يجتمع فيه أحبابي'. وهكذا بدأت في بناء هذا المقام، بمساعدة أهل القرية ومحبي الشيخ من كل مكان."

توقف مغاوري عن الكلام، وأخذ رشفة من كوب الشاي الذي أحضره حفيده. كنت مستغرقاً تماماً في القصة، وشعرت بأن كل خلية في جسدي تستمع وتتفاعل.

"هل تصدق كل هذا؟" سألته بصوت خافت، محاولاً أن أفهم كيف يمكن لرجل في عصرنا أن يؤمن بهذه القصص.

نظر إلي مغاوري بعمق وقال: "لا يهم ما أصدقه أنا أو أنت. المهم هو ما تشعر به قلبك عندما تسمع هذه القصة. الإيمان ليس مسألة عقل، بل مسألة قلب."

صمت للحظات، أفكر في كلامه، ثم سألته: "هل يمكنني أن أعرف المزيد عن سيدي الشيخ؟ هل هناك كتب أو وثائق عنه؟"

ابتسم مغاوري وقال: "هناك بعض الكتيبات الصغيرة التي جمعها بعض محبيه، لكن أفضل طريقة لمعرفته هي التحدث إلى من عرفوه وعاشوا معه. وأنا سأكون سعيداً بمشاركة ما أعرفه معك."

قضيت بقية اليوم مع مغاوري، يحكي لي قصصاً وحكايات عن الشيخ محمد عيد، وأنا أستمع بانبهار، وأدون بعض الملاحظات في دفتري. كان هناك شيء في طريقة حكيه، في صدق كلماته، في عمق إيمانه، جعلني أشعر بأنني أقترب من فهم شيء كبير، شيء يتجاوز حدود عقلي المنطقي.

حكى لي مغاوري عن كرامات الشيخ، عن قدرته على معرفة ما في قلوب الناس، عن تنبؤاته التي تحققت، عن شفائه للمرضى. حكى لي عن تواضعه وزهده، عن كرمه وإيثاره، عن حبه للفقراء والمحتاجين.

"كان سيدي الشيخ يقول دائماً: 'الطريق إلى الله يبدأ بخدمة خلقه'،" قال مغاوري، "وكان يعيش هذه الكلمات. كان يقضي يومه في مساعدة الناس، في حل مشاكلهم، في تخفيف آلامهم. كان يقول: 'كل إنسان يحمل جرحاً، وواجبنا أن نضمد جراح بعضنا البعض'."

عندما حان وقت المغادرة، سألني مغاوري: "هل ستعود؟"

"نعم،" أجبت بدون تردد، "سأعود."

"إذن، سيدي الشيخ قد اختارك،" قال مبتسماً، "وهو لا يختار إلا من يستحق."

خرجت من منزل مغاوري وأنا أشعر بخفة غريبة، وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي. نظرت إلى السماء، حيث بدأت النجوم الأولى تظهر في الأفق، وتساءلت: هل يمكن أن يكون كل هذا حقيقياً؟ هل يمكن أن يكون هناك عالم آخر، عالم من النور والمعرفة، يتجاوز عالمنا المادي المحسوس؟

في طريق عودتي إلى القاهرة، كنت أفكر في كل ما سمعته. كانت أفكاري متضاربة، بين عقلي الذي يطلب الدليل والبرهان، وقلبي الذي بدأ يشعر بشيء جديد، شيء لم أعرفه من قبل.

قررت أن أبحث أكثر، أن أتعمق في قصة الشيخ محمد عيد، أن أتحدث إلى المزيد من الناس الذين عرفوه، أن أقرأ عن الأولياء والتصوف. كانت هذه بداية رحلة طويلة، رحلة لم أكن أعلم أنها ستغير حياتي إلى الأبد.

"كلما اتسعت الرؤية، ضاق التعبير."

- النفري

الفصل الثالث: الكرامة الأولى

مرت ثلاثة أشهر على زيارتي الأولى لمقام سيدي الشيخ محمد عيد، وخلال هذه الفترة، وجدت نفسي منجذباً بشكل غريب إلى عالم لم أكن أعرفه من قبل. بدأت أقرأ كتباً عن التصوف والأولياء، وأبحث في المكتبات عن أي معلومة تتعلق بالشيخ محمد عيد.

كنت أزور المقام كل أسبوعين تقريباً، أجلس مع مغاوري، أستمع إلى قصصه، وأتعرف على محبي الشيخ الآخرين. كل زيارة كانت تكشف لي جانباً جديداً من شخصية هذا الرجل الاستثنائي، وكل قصة كانت تزيد من فضولي وانبهاري.

في إحدى زياراتي، قابلت رجلاً مسناً يدعى الحاج سليمان، كان من تلاميذ الشيخ المقربين. جلسنا تحت ظل شجرة كبيرة في فناء المقام، والنسيم العليل يداعب وجوهنا، وأصوات العصافير تملأ المكان بألحان عذبة.

"كان سيدي الشيخ يعرف ما في القلوب قبل أن تنطق الألسنة،" قال الحاج سليمان، وعيناه تلمعان بذكريات عزيزة. "في أحد الأيام، جاءه رجل غريب، لم يره أحد من قبل. كان الرجل يرتدي ملابس بالية، ويبدو فقيراً معدماً. جلس في آخر المجلس، صامتاً، يستمع إلى حديث الشيخ.

بعد انتهاء المجلس، نادى الشيخ على الرجل وقال له: 'تعال يا سيدي، الفقراء أحب الناس إلى قلبي'. تعجبنا من كلمة 'سيدي' التي استخدمها الشيخ مع هذا الفقير. ثم أخذه الشيخ إلى بيته، وأكرمه، وجلس معه طويلاً.

بعد أن غادر الرجل، سألنا الشيخ: 'هل تعرفون من كان هذا؟' قلنا: 'لا يا سيدي'. فقال: 'هذا من أولياء الله المستورين، جاء ليختبرني، ليرى إن كنت أميز بين الناس حسب مظهرهم'. ثم أضاف: 'تذكروا يا أبنائي، الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، بل ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم'."

حكى لي الحاج سليمان أيضاً كيف كان الشيخ يعرف أفكار الناس قبل أن يتحدثوا، وكيف كان يتنبأ بأحداث قبل وقوعها.

"في عام 1948، قبل حرب فلسطين، كان سيدي الشيخ جالساً معنا تحت شجرة التوت. فجأة، بدأ يبكي بحرقة. سألناه عما يبكيه، فقال: 'أرى دماً كثيراً سيسيل، وأرضاً ستضيع، وشعباً سيتشرد'. لم نفهم ما يقصده وقتها، لكن بعد أشهر، اندلعت الحرب، وحدث بالضبط ما تنبأ به."

في زيارة أخرى، قابلت امرأة عجوزاً تدعى الحاجة زينب، كانت تعمل خادمة في بيت أحد أصدقاء الشيخ. كانت امرأة بسيطة، وجهها المجعد يحمل آثار سنوات طويلة من العمل الشاق، لكن عينيها كانتا تشعان بنور غريب عندما تحدثت عن الشيخ.

حكت لي كيف شفاها الشيخ من مرض عضال بمجرد أن وضع يده على رأسها ودعا لها.

"كان الأطباء قد فقدوا الأمل في شفائي، وأخبروا أهلي أنني لن أعيش أكثر من شهر. أحضرني أخي إلى سيدي الشيخ، وكنت وقتها لا أستطيع المشي. جلست أمامه، ونظر إلي بعينين مليئتين بالرحمة، ثم وضع يده على رأسي وقال: 'بإذن الله، ستشفين وتعيشين طويلاً لتري أحفادك'. في اليوم التالي، استيقظت وأنا أشعر بتحسن، وخلال أسبوع، عدت إلى حياتي الطبيعية. والآن، بعد سبعين عاماً، ما زلت أعيش ببركة دعائه، وقد رأيت أحفادي وأحفاد أحفادي."

كانت هذه القصص تثير في نفسي مشاعر متضاربة. جزء مني كان لا يزال يشكك، يبحث عن تفسيرات منطقية، يرفض تصديق ما يتجاوز قوانين العلم والطبيعة. لكن جزءاً آخر، جزءاً كان ينمو يوماً بعد يوم، بدأ يتقبل إمكانية وجود عالم آخر، عالم من الروح والإيمان، لا تحكمه قوانين المادة والفيزياء.

في إحدى الليالي، كنت جالساً في شقتي بالقاهرة، أعمل على مشروعي البرمجي، عندما تلقيت مكالمة هاتفية من خالي الحاج محمود.

"كريم، يا بني، هل يمكنك أن تأتي غداً؟ أنا في المستشفى."

شعرت بقلق شديد. "ما الأمر يا خالي؟ هل أنت بخير؟"

"لا تقلق، مجرد فحوصات روتينية. لكنني سأحتاج من يوصلني إلى البيت بعد الفحوصات."

"بالطبع يا خالي، سآتي غداً صباحاً."

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى ووجدت خالي في غرفة الانتظار. كان يبدو شاحباً ومتعباً، لكنه ابتسم عندما رآني.

"كيف حالك يا خالي؟ ما نتيجة الفحوصات؟"

تنهد خالي وقال: "الأطباء وجدوا شيئاً في القلب، يقولون إنني بحاجة إلى عملية."

شعرت بخوف يعتصر قلبي. خالي كان الشخص الوحيد المتبقي من عائلة أمي، وكان بمثابة أب ثانٍ لي بعد وفاة والدي.

"متى ستكون العملية؟"

"بعد أسبوعين. يقولون إنهم بحاجة إلى تجهيزات خاصة."

أخذت خالي إلى بيته، وبقيت معه طوال اليوم، أحاول أن أخفف عنه وأطمئنه. لكنني كنت قلقاً جداً. في المساء، عندما كان خالي نائماً، جلست في شرفة منزله أتأمل النجوم وأفكر.

فجأة، خطرت لي فكرة. ماذا لو أخذت خالي إلى مقام سيدي الشيخ محمد عيد؟ ربما تكون هناك بركة أو راحة نفسية على الأقل. لم أكن أؤمن تماماً بالكرامات والمعجزات، لكنني كنت مستعداً لتجربة أي شيء قد يساعد خالي.

في صباح اليوم التالي، اقترحت على خالي أن نذهب إلى المقام. ابتسم ابتسامة واسعة وقال: "كنت أتمنى أن تقترح ذلك."

قدنا السيارة إلى أبشواي، وخالي يردد أدعية وأذكاراً طوال الطريق. عندما وصلنا إلى المقام، كان المكان هادئاً، مع وجود بعض الزوار المتفرقين. ساعدت خالي على الدخول، وجلسنا قرب الضريح.

بدأ خالي يقرأ الفاتحة ويدعو بصوت خافت. كنت أراقبه، وأشعر بمزيج من الأمل والشك. بعد فترة، أغمض خالي عينيه وغفا قليلاً. تركته نائماً، وخرجت إلى فناء المقام لأتنفس الهواء النقي.

وجدت مغاوري جالساً تحت شجرة، يسبح بمسبحته المعتادة. عندما رآني، أشار لي بالجلوس بجانبه.

"جئت مع خالك هذه المرة،" قال، وكأنه كان يعلم.

"نعم، خالي مريض. سيجري عملية في القلب بعد أسبوعين."

"سيدي الشيخ يحب الحاج محمود كثيراً،" قال مغاوري بهدوء.

"هل تعتقد أن زيارة المقام ستساعده؟" سألته، محاولاً إخفاء شكي.

نظر إلي مغاوري بعمق وقال: "الشفاء بيد الله وحده. نحن نطلب البركة والرحمة، ونترك النتائج لله."

صمت للحظات، ثم سألته: "هل رأيت بنفسك كرامات للشيخ محمد عيد؟ كرامات لا يمكن تفسيرها بالعلم أو المنطق؟"

ابتسم مغاوري وقال: "رأيت الكثير يا بني. لكن الكرامة الحقيقية ليست في خرق قوانين الطبيعة، بل في خرق قوانين القلب البشري. الكرامة الحقيقية هي أن يتحول الإنسان من الأنانية إلى الإيثار، من الكراهية إلى الحب، من الخوف إلى الإيمان."

كانت كلماته عميقة، لكنني كنت أبحث عن شيء أكثر ملموسية، شيء يمكنني رؤيته ولمسه.

"لكن الناس يتحدثون عن معجزات، عن شفاء المرضى، عن معرفة الغيب..."

قاطعني مغاوري قائلاً: "هذه مظاهر خارجية للولاية، وليست جوهرها. الولي الحقيقي هو من يعيش في حضرة الله دائماً، من يرى الله في كل شيء، من يحب الخلق لأنهم خلق الله."

شعرت بإحباط خفيف. كنت أريد إجابات واضحة، دلائل قاطعة، لكن مغاوري كان يتحدث بلغة أخرى، لغة لم أكن قد تعلمتها بعد.

عدت إلى داخل المقام، ووجدت خالي مستيقظاً، يبدو أكثر نشاطاً وحيوية.

"كيف تشعر يا خالي؟" سألته.

"أشعر براحة عجيبة يا كريم. رأيت سيدي الشيخ في المنام، كان يبتسم لي ويقول: 'لا تخف يا محمود، قلبك بخير'."

ابتسمت له، محاولاً إخفاء شكوكي. ربما كان مجرد حلم، أو ربما كان تأثير الراحة النفسية التي شعر بها في المقام.

في طريق العودة إلى القاهرة، كان خالي يتحدث بحماس عن رؤيته، وعن ثقته بأن كل شيء سيكون على ما يرام. كنت أستمع إليه وأنا أقود السيارة، وفي داخلي صراع بين الإيمان والشك، بين القلب والعقل.

مر الأسبوعان بسرعة، وجاء يوم العملية. أخذت خالي إلى المستشفى في الصباح الباكر، وانتظرت مع بقية أفراد العائلة في غرفة الانتظار. كانت ساعات طويلة من القلق والترقب.

أخيراً، خرج الطبيب من غرفة العمليات، وعلى وجهه تعبير غريب.

"كيف الحال يا دكتور؟ هل نجحت العملية؟" سألته بلهفة.

نظر إلي الطبيب بحيرة وقال: "في الواقع، لم نجر العملية."

"ماذا؟ لماذا؟ هل حدث مكروه؟"

"لا، على العكس. عندما أجرينا الفحوصات النهائية قبل العملية، لم نجد أي مشكلة في القلب. الشرايين سليمة تماماً، ولا يوجد أي انسداد أو ضعف."
شعرت بدوار خفيف. "لكن الفحوصات السابقة..."

"نعم، هذا ما يحيرنا. الفحوصات السابقة كانت تشير بوضوح إلى وجود انسداد في الشرايين التاجية، لكن الآن، كل شيء طبيعي تماماً. لا يمكنني تفسير ذلك علمياً."

خرج خالي من غرفة الإفاقة بعد ساعة، وكان يبتسم ابتسامة واسعة. "ألم أقل لك يا كريم؟ سيدي الشيخ وعدني بأن قلبي سيكون بخير."

في طريق العودة إلى المنزل، كنت صامتاً، غارقاً في أفكاري. هل كان ما حدث مجرد خطأ في الفحوصات الأولى؟ أم أن هناك تفسيراً آخر، تفسيراً يتجاوز حدود العلم والمنطق؟

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. جلست على شرفة منزلي، أتأمل النجوم، وأفكر في كل ما حدث خلال الأشهر الماضية. كانت رحلتي مع سيدي الشيخ محمد عيد قد بدأت بفضول بسيط، ثم تحولت إلى بحث عميق، والآن، ربما، إلى إيمان جديد.

قررت أن أعود إلى المقام في اليوم التالي، لأشكر سيدي الشيخ، سواء كان ما حدث كرامة أو مصادفة. كنت أعلم أن رحلتي لم تنته بعد، وأن هناك المزيد لأتعلمه، المزيد لأفهمه، المزيد لأؤمن به.

في الصباح، استيقظت على صوت هاتفي. كانت مكالمة من رقم غير معروف.

"ألو؟"

"صباح الخير يا كريم،" جاءني صوت مألوف.

"من معي؟"

"أنا مغاوري. أردت فقط أن أطمئن على الحاج محمود. كيف حاله بعد العملية؟"

توقفت للحظة، مندهشاً. لم أعط مغاوري رقم هاتفي أبداً، ولم أخبره بموعد عملية خالي.

"خالي بخير يا حاج مغاوري. في الواقع، لم يجروا العملية. الأطباء لم يجدوا أي مشكلة في قلبه."

ضحك مغاوري ضحكة خفيفة وقال: "الحمد لله. سيدي الشيخ يحب الحاج محمود كثيراً."

"كيف عرفت رقم هاتفي يا حاج مغاوري؟" سألته بفضول.

"سيدي الشيخ أخبرني،" أجاب ببساطة، ثم أغلق الهاتف.

وقفت هناك، والهاتف في يدي، وقلبي يخفق بشدة. كانت هذه هي الكرامة الأولى التي شهدتها بنفسي، الكرامة التي لا يمكنني تفسيرها بالعلم أو المنطق، الكرامة التي فتحت قلبي لعالم جديد، عالم من الإيمان والروح والنور.

في ذلك اليوم، عدت إلى مقام سيدي الشيخ محمد عيد، ليس كباحث أو متشكك، بل كمريد ومحب. جلست أمام الضريح، وللمرة الأولى، شعرت بحضور حقيقي، بروح تلامس روحي، بنور يضيء ظلمات قلبي.

"شكراً لك يا سيدي الشيخ،" همست، والدموع تملأ عيني، "شكراً لأنك فتحت لي باباً كنت أظنه مغلقاً إلى الأبد."

ومن ذلك اليوم، أصبحت زياراتي للمقام جزءاً من حياتي. أجلس مع مغاوري، أستمع إلى قصصه، أتعلم منه أسرار الطريق. وفي كل زيارة، أكتشف جانباً جديداً من نفسي، جانباً كان نائماً، ينتظر من يوقظه.

لم أترك عملي أو حياتي العادية، لكنني أصبحت أراها بعينين جديدتين. أصبحت أرى الجمال في التفاصيل الصغيرة، والمعنى في الأحداث العابرة، والحكمة في التجارب الصعبة.

وعندما يسألني الناس عن قصتي مع سيدي الشيخ محمد عيد، أقول لهم: "إنها قصة رجل كان يبحث عن الدليل، فوجد الإيمان. قصة قلب كان مغلقاً، ففتحته بركة الأولياء."

"ما رأيتُ شيئًا إلا رأيتُ اللّٰه فيه."

- أبو الحسن الشاذلي

الفصل الرابع: قصة الزواج

في إحدى زياراتي للمقام، وجدت مغاوري جالساً في ظل شجرة قديمة، يتأمل غروب الشمس. كانت أشعة الشمس الذهبية تتسلل بين أوراق الشجرة، راسمة ظلالاً متراقصة على وجهه المجعد. عندما رآني، ابتسم وأشار لي بالجلوس بجانبه.

"أراك تأتي كثيراً هذه الأيام يا كريم،" قال بصوت هادئ، "هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟"

جلست بجانبه، وأخذت نفساً عميقاً من هواء المساء العليل. "لا أعرف بالضبط ما كنت أبحث عنه يا حاج مغاوري. لكنني أشعر أنني أقترب من شيء مهم، شيء يغير نظرتي للحياة."

ابتسم ابتسامة عميقة، وكأنه يعرف تماماً ما أمر به. "هذا هو تأثير سيدي الشيخ. حتى بعد رحيله، ما زال يهدي القلوب الباحثة."

صمتنا للحظات، نستمع إلى أصوات العصافير وهي تعود إلى أعشاشها مع حلول المساء. ثم سألته سؤالاً كان يدور في ذهني منذ فترة: "هل كان سيدي الشيخ متزوجاً؟ لم أسمع الكثير عن حياته الشخصية."

ضحك مغاوري ضحكة خفيفة وقال: "نعم، كان متزوجاً. الأولياء بشر مثلنا، يعيشون حياة طبيعية، يتزوجون، ينجبون أطفالاً، يفرحون ويحزنون. الفرق هو أنهم يعيشون كل هذه التجارب بقلوب متصلة بالله، فيرون في كل شيء آية من آياته، وفي كل حدث حكمة من حكمه."

"هل يمكنك أن تحدثني عن زواجه؟" سألته بفضول.

أغمض مغاوري عينيه للحظات، وكأنه يستحضر ذكريات بعيدة، ثم بدأ يحكي بصوت عميق، مليء بالحنين:

"كان سيدي الشيخ محمد عيد في الثلاثين من عمره عندما تزوج للمرة الأولى. كان قد اشتهر في المنطقة بعلمه وتقواه، وكان الناس يأتون إليه من القرى المجاورة ليستمعوا إلى دروسه ويطلبوا نصيحته. لكنه كان لا يزال شاباً، يحتاج إلى سكن وراحة.

في تلك الأيام، كان في القرية عائلة معروفة بالصلاح والتقوى، عائلة زيدان. كان رب الأسرة، الحاج إبراهيم زيدان، من محبي سيدي الشيخ ومريديه. وكانت له ابنتان: فاطمة وحليمة.

كانت فاطمة، الابنة الكبرى، فتاة هادئة، حكيمة، تحب القراءة والتعلم. كانت تساعد والدها في تعليم فتيات القرية القرآن والقراءة والكتابة. وكانت معروفة بين أهل القرية بحيائها وأدبها وحسن خلقها.

في أحد الأيام، جاء الحاج إبراهيم إلى سيدي الشيخ بعد درس العصر، وجلس معه على انفراد. قال له: 'يا سيدي الشيخ، أنت شاب، وتحتاج إلى من يعينك على أمور الدنيا، ليتفرغ قلبك لذكر الله وخدمة عباده. وقد رأيت أن أعرض عليك الزواج من ابنتي فاطمة، فهي فتاة صالحة، تقية، وأظنها ستكون خير معين لك على طاعة الله.'

فكر سيدي الشيخ في الأمر، واستخار الله، ثم وافق. وهكذا تم الزواج في حفل بسيط، حضره أهل القرية وبعض المريدين من القرى المجاورة.

كانت فاطمة نعم الزوجة لسيدي الشيخ. كانت تفهم طبيعة حياته، وتعرف أن بيتها سيكون مفتوحاً دائماً للزوار والمريدين والمحتاجين. لم تشتك يوماً من كثرة الضيوف، أو من انشغال زوجها بالناس. بل كانت تساعده وتعينه، وتهيئ له الجو المناسب للعبادة والتأمل.

كان سيدي الشيخ يحبها ويقدرها كثيراً. كان يقول دائماً: 'فاطمة نور بيتي، وراحة قلبي'. وكان يشاورها في أموره، ويستمع إلى رأيها، ويحترم حكمتها.

عاشا معاً حياة هادئة، مليئة بالحب والإيمان والبركة. وأنجبا ثلاثة أطفال: ولدين وبنتاً. كان سيدي الشيخ أباً حنوناً، يقضي وقتاً مع أطفاله، يعلمهم ويلعب معهم، رغم انشغاله الدائم بالناس ومشاكلهم.

لكن الدنيا لا تدوم على حال. وبعد خمسة عشر عاماً من الزواج، مرضت فاطمة مرضاً شديداً. حاول سيدي الشيخ كل ما في وسعه لعلاجها. أحضر لها الأطباء، وأعطاها الأدوية، ودعا لها بكل قلبه. لكن إرادة الله كانت قد نفذت، وتوفيت فاطمة في ليلة من ليالي الشتاء الباردة.

كان حزن سيدي الشيخ عميقاً، لكنه كان صابراً، محتسباً. لم يره أحد يبكي أو يصرخ أو يعترض على قضاء الله. كان يردد دائماً: 'إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها.'

في يوم من الأيام، بعد وفاة فاطمة بعدة أشهر، جاءت حليمة، أخت فاطمة، لزيارة أختها الصغيرة، ابنة سيدي الشيخ. كانت حليمة قد تجاوزت الثلاثين، ولم تتزوج بعد. كانت تشبه أختها في هدوئها وحكمتها، لكنها كانت أكثر انطواءً وخجلاً.

عندما رأت حال البيت بعد وفاة أختها، وكيف أصبح الأطفال بلا أم ترعاهم، وكيف أصبح سيدي الشيخ يعاني من تدبير أمور البيت مع انشغاله بالناس ومشاكلهم، شعرت بحزن عميق.

في تلك الليلة، ذهبت إلى والدها، الحاج إبراهيم، وقالت له: 'يا أبي، أرى أن بيت سيدي الشيخ بحاجة إلى امرأة تدير شؤونه وترعى أطفاله. وأنا مستعدة أن أكون هذه المرأة، إذا قبلني سيدي الشيخ زوجة له.'

تأثر الحاج إبراهيم بكلام ابنته، وذهب في اليوم التالي إلى سيدي الشيخ، وعرض عليه الأمر. كان سيدي الشيخ مترددًا في البداية، فقد كان لا يزال يشعر بألم فقدان فاطمة. لكنه استخار الله، واستشار بعض أصدقائه المقربين، ثم وافق على الزواج من حليمة.

كان زواجهما بسيطاً، بدون احتفالات أو مظاهر. وسرعان ما أثبتت حليمة أنها كانت الاختيار الصحيح. كانت تحب أطفال أختها كأنهم أطفالها، وتعتني بهم بكل حب وحنان. وكانت تدير البيت بحكمة وكفاءة، وتستقبل الضيوف والمريدين بترحاب، وتساعد سيدي الشيخ في خدمة الناس.

كان سيدي الشيخ يقدر تضحيتها وإخلاصها، ويعاملها باحترام وتقدير. وكان يقول دائماً: 'حليمة أمانة فاطمة عندي، وأنا أحافظ على هذه الأمانة.'

عاشا معاً حياة هادئة، مليئة بالاحترام المتبادل والتفاهم. وأنجبا طفلين: ولداً وبنتاً. وهكذا أصبح بيت سيدي الشيخ مليئاً بالأطفال والحياة والبركة.

كانت حليمة تفهم طبيعة حياة سيدي الشيخ، وتعرف أنه ليس رجلاً عادياً. كانت ترى الكرامات تحدث في بيتها يومياً، وكانت تشهد كيف كان الناس يأتون إليه بمشاكلهم ويخرجون وقد حلت، كيف كان المرضى يأتون إليه ويخرجون وقد شفوا، كيف كان الحزانى يأتون إليه ويخرجون وقد سعدوا.

لكنها لم تكن تتحدث عن هذه الأمور خارج البيت. كانت تحفظ أسرار زوجها، وتحترم خصوصيته، وتساعده على أداء رسالته في هدوء وسكينة.

وفي أحد الأيام، بينما كانت حليمة تعد الطعام في المطبخ، سمعت صوت طرق على الباب. فتحت لتجد رجلاً غريباً، يبدو عليه التعب والجوع. قال لها: 'أنا مسافر، وقد نفد طعامي، وسمعت أن بيت الشيخ محمد عيد مفتوح للجميع.'

أدخلته حليمة إلى البيت، وأجلسته في غرفة الضيوف، ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضر له الطعام. لكنها اكتشفت أنه لم يكن لديها سوى القليل من الخبز والزيتون، بالكاد يكفي لوجبة واحدة.

ترددت للحظات، ثم قررت أن تقدم كل ما لديها للضيف. وضعت الخبز والزيتون في طبق، وأضافت إليه كوباً من الشاي، وقدمته للرجل.

عندما عاد سيدي الشيخ إلى البيت، أخبرته حليمة بما حدث. ابتسم وقال: 'أحسنت يا حليمة. الضيف يأتي برزقه معه.'

وبالفعل، بعد ساعة واحدة، جاء أحد المريدين يحمل كيساً كبيراً من الدقيق، وآخر يحمل سلة مليئة بالفواكه والخضروات، وثالث يحمل قدراً من العسل. وهكذا امتلأ بيت سيدي الشيخ بالطعام، بعد أن كان خالياً.

نظرت حليمة إلى زوجها بدهشة، وقالت: 'سبحان الله! كيف عرفوا أننا بحاجة إلى الطعام؟'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'الله يرزق من يشاء بغير حساب. ومن أطعم جائعاً، أطعمه الله من حيث لا يحتسب.'

كانت هذه إحدى الكرامات العديدة التي شهدتها حليمة في بيتها. وكانت تزيدها إيماناً وتسليماً لقضاء الله وقدره.

استمر زواج سيدي الشيخ وحليمة حتى وفاته. وكانت حليمة إلى جانبه في لحظاته الأخيرة، تقرأ له القرآن، وتذكره بالله، وتدعو له بالرحمة والمغفرة.

وبعد وفاته، أصبحت حليمة حارسة ذكراه وتراثه. كانت تجلس مع النساء، تحكي لهن عن حياته وكراماته، وتعلمهن من حكمته وتعاليمه. وكانت تزور مقامه كل يوم، تقرأ له الفاتحة، وتدعو له بالرحمة والمغفرة.

عاشت حليمة بعد وفاة سيدي الشيخ سنوات طويلة، وكانت محترمة ومحبوبة بين أهل القرية. وعندما توفيت، دفنت بجوار قبر زوجها، كما كانت وصيتها."

توقف مغاوري عن الكلام، وأخذ نفساً عميقاً. كانت الشمس قد غابت تماماً، وبدأت النجوم تظهر في السماء واحدة تلو الأخرى.

"هل كانت هذه قصة حقيقية؟" سألته، متأثراً بما سمعت.

ابتسم مغاوري وقال: "كل كلمة قلتها حقيقية يا بني. كنت شاهداً على معظم هذه الأحداث. كنت أعرف فاطمة وحليمة، وكنت أزور بيت سيدي الشيخ كثيراً. كان بيتاً مليئاً بالحب والإيمان والبركة."

"ماذا حدث لأبناء سيدي الشيخ؟" سألته بفضول.

"كبروا وأصبحوا رجالاً ونساءً صالحين. بعضهم لا يزال يعيش في القرية، والبعض الآخر انتقل إلى المدن الكبيرة. لكنهم جميعاً يحملون إرث والدهم من العلم والتقوى والحكمة."

جلسنا صامتين للحظات، كل منا غارق في أفكاره. كنت أفكر في قصة سيدي الشيخ وزوجتيه، وكيف كانت حياتهم بسيطة لكنها عميقة، كيف كانوا يواجهون

صعوبات الحياة بإيمان وصبر، كيف كانوا يرون في كل حدث حكمة إلهية، وفي كل تجربة درساً ومعنى.

"هل تعرف يا كريم،" قال مغاوري فجأة، كاسراً الصمت، "الحب الحقيقي ليس مجرد مشاعر وعواطف، بل هو اختيار واعٍ، والتزام عميق، وتضحية مستمرة. هذا ما كان بين سيدي الشيخ وزوجتيه. كان حباً يتجاوز حدود الزمان والمكان، حباً يستمد قوته من الإيمان بالله والتسليم لإرادته."

هززت رأسي موافقاً، وأنا أشعر بأن كلماته تلامس شيئاً عميقاً في داخلي. كنت قد عشت قصص حب عديدة في حياتي، لكنها كانت سطحية، مبنية على المظاهر والمصالح المشتركة. لم أعرف أبداً هذا النوع من الحب العميق، الذي يتجاوز الذات ويرتقي بالروح.

"هل يمكن أن نجد هذا النوع من الحب في عصرنا الحالي؟" سألته.

ابتسم مغاوري وقال: "بالطبع يا بني. الحب الحقيقي موجود في كل زمان ومكان. لكنه يحتاج إلى قلوب صافية، وأرواح نقية، ونوايا خالصة. يحتاج إلى إيمان عميق بالله، وثقة في حكمته وتدبيره."

وقفنا لنغادر، فقد حان وقت صلاة العشاء. وبينما كنا نسير نحو المسجد، قال لي مغاوري: "تعال غداً يا كريم، وسأحكي لك قصة أخرى من قصص سيدي الشيخ، قصة الزكيبة."

"الزكيبة؟" سألته باستغراب، "ما هي الزكيبة؟"

ضحك مغاوري وقال: "غداً ستعرف. إنها واحدة من أشهر كرامات سيدي الشيخ، وواحدة من أكثر القصص التي يتناقلها الناس في هذه المنطقة."

ودعته وأنا أشعر بشوق لسماع المزيد من قصص هذا الرجل الاستثنائي، الذي بدأت أشعر أنه أصبح جزءاً من حياتي، رغم أنني لم ألتق به أبداً في حياته.

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت، كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك.

ابن عطاء الله السكندري /الحكم العطائية

الفصل الخامس: حكاية الزكيبة

في صباح اليوم التالي، عدت إلى المقام كما وعدت مغاوري. كان الجو صافياً، والسماء زرقاء صافية، والنسيم عليلاً يحمل رائحة الياسمين والريحان. وجدت مغاوري جالساً في نفس المكان، تحت الشجرة القديمة، يسبح بمسبحته الخشبية ويتمتم بأذكار الصباح.

عندما رآني، ابتسم وأشار لي بالجلوس بجانبه. "صباح الخير يا كريم. أرى أنك حريص على سماع قصة الزكيبة."

جلست بجانبه، وأخرجت دفتر ملاحظاتي وقلمي، مستعداً لتدوين كل كلمة. "نعم يا حاج مغاوري. لقد فكرت في هذه القصة طوال الليل، وأنا متشوق لسماعها."

ضحك مغاوري وقال: "الزكيبة قصة عجيبة، تناقلها الناس في هذه المنطقة جيلاً بعد جيل. وأنا سأحكيها لك كما رأيتها بعيني، فقد كنت شاهداً عليها."

أخذ مغاوري رشفة من كوب الشاي الذي أحضره له حفيده، ثم بدأ يحكي بصوت عميق، مليء بالحنين:

"كان ذلك في أواخر الأربعينيات، قبل ثورة يوليو بسنوات قليلة. كانت مصر تمر بفترة صعبة، والفقر منتشراً في القرى والأرياف. وكان سيدي الشيخ محمد عيد معروفاً في المنطقة بكرمه وإحسانه للفقراء والمحتاجين.

في تلك الأيام، كان هناك رجل يدعى عبد الرحمن، كان من أشد الناس فقراً في القرية. كان يعمل في الزراعة، يكدح من الفجر حتى الغروب ليوفر لقمة العيش لزوجته وأطفاله الخمسة. لكن دخله كان بالكاد يكفي لإطعامهم.

في أحد الأيام، جاء عبد الرحمن إلى سيدي الشيخ بعد صلاة العصر. كان وجهه شاحباً، وملابسه بالية، وعيناه تحملان نظرة يأس وحزن. جلس في آخر المجلس، ينتظر حتى ينصرف الناس ليتحدث مع الشيخ على انفراد.

عندما خلا المجلس، اقترب عبد الرحمن من سيدي الشيخ، وقبل يده، وقال بصوت متهدج: 'يا سيدي الشيخ، أنا في ضيق شديد. أطفالي جوعى، وزوجتي مريضة، وليس عندي ما أطعمهم به. جئت إليك أطلب المساعدة.'

نظر إليه سيدي الشيخ بعينين مليئتين بالرحمة والشفقة، وقال: 'لا تقلق يا عبد الرحمن، الله كريم، ولن يتركك وأطفالك جوعى.'

ثم التفت إلي وقال: 'يا مغاوري، اذهب إلى البيت وأحضر الزكيبة.'

كنت أعرف ما يقصده سيدي الشيخ بالزكيبة. كانت كيساً صغيراً من القماش، يحتفظ به في بيته، ويضع فيه بعض النقود للطوارئ وللصدقات. ذهبت مسرعاً إلى بيت سيدي الشيخ، وطلبت من زوجته، الست حليمة، أن تعطيني الزكيبة.

أعطتني الزكيبة، وكانت خفيفة جداً، تكاد تكون فارغة. شعرت بالحرج، فقد كنت أعلم أن عبد الرحمن يحتاج إلى مبلغ كبير ليسد حاجة أسرته. لكنني عدت بها إلى سيدي الشيخ كما طلب.

عندما رآني سيدي الشيخ، ابتسم وأخذ الزكيبة مني. ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال: 'خذ هذه الزكيبة يا عبد الرحمن، وافتحها عندما تصل إلى بيتك. ستجد فيها ما يكفيك وأسرتك بإذن الله.'

أخذ عبد الرحمن الزكيبة بيدين مرتعشتين، وقبلها، ثم قبل يد سيدي الشيخ، وانصرف وهو يدعو له بالخير والبركة.

بعد أن انصرف عبد الرحمن، نظرت إلى سيدي الشيخ بحيرة، وقلت: 'يا سيدي، الزكيبة كانت خفيفة جداً، تكاد تكون فارغة. كيف ستكفي عبد الرحمن وأسرته؟'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'يا مغاوري، الرزق بيد الله، وليس بيد العباد. الله قادر أن يجعل القليل كثيراً، والصغير كبيراً، إذا كانت النية خالصة والقلب صادقاً.'

لم أفهم تماماً ما يقصده سيدي الشيخ، لكنني لم أجرؤ على السؤال أكثر. وانصرفت وأنا أفكر في مصير عبد الرحمن وأسرته.

في صباح اليوم التالي، كنت في السوق أشتري بعض الحاجيات، عندما رأيت عبد الرحمن قادماً نحوي. كان وجهه مشرقاً، وعيناه تلمعان بفرح غريب. أمسك بيدي وقال: 'يا حاج مغاوري، هل رأيت سيدي الشيخ اليوم؟'

قلت له: 'لا، لم أره بعد. ماذا حدث؟'

قال بصوت متهدج من شدة الانفعال: 'سيدي الشيخ رجل من أهل الله. الزكيبة التي أعطاني إياها كانت مليئة بالذهب!'

شعرت بصدمة. 'ذهب؟! كيف؟ الزكيبة كانت خفيفة جداً عندما أحضرتها من بيت سيدي الشيخ!'

قال عبد الرحمن: 'لا أعرف كيف حدث ذلك. كل ما أعرفه أنني عندما وصلت إلى البيت وفتحت الزكيبة، وجدت فيها عشر قطع من الذهب الخالص. ذهبت بها إلى الصائغ في المدينة، وقال لي إنها تساوي ثروة! بعت قطعة واحدة، واشتريت بثمنها طعاماً وملابس لأطفالي، ودواءً لزوجتي، وما زال معي تسع قطع!'

كنت مذهولاً مما سمعت. كيف يمكن لزكيبة خفيفة، تكاد تكون فارغة، أن تحتوي على عشر قطع من الذهب الخالص؟ هل كان سيدي الشيخ يخفي الذهب في بيته؟ لكنني كنت أعرف أنه كان زاهداً، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً.

ذهبت مسرعاً إلى سيدي الشيخ، ووجدته جالساً تحت شجرة التوت، يقرأ القرآن. عندما رآني، ابتسم وقال: 'أراك متعجباً يا مغاوري. هل قابلت عبد الرحمن؟'

قلت له: 'نعم يا سيدي. يقول إن الزكيبة كانت مليئة بالذهب! كيف حدث ذلك؟'

ضحك سيدي الشيخ وقال: 'يا مغاوري، ألم أقل لك إن الرزق بيد الله؟ أنا لم أضع ذهباً في الزكيبة، بل وضعت فيها نيتي الصادقة في مساعدة عبد الرحمن وأسرته. والله حول هذه النية إلى ذهب، لأنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.'

كنت أستمع إليه بذهول، غير مصدق لما أسمع. كيف يمكن للنية أن تتحول إلى ذهب؟ كيف يمكن للكلمات أن تصبح ثروة؟

كأنه قرأ أفكاري، فقال: 'لا تتعجب يا مغاوري. الله قادر على كل شيء. ألم يحول العصا إلى ثعبان في يد موسى؟ ألم يجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم؟ ألم يشف المرضى بإذن الله على يد عيسى؟ الله قادر أن يحول النية الصادقة إلى ذهب خالص، إذا كان في ذلك خير لعباده.'

ثم أضاف: 'لكن احذر يا مغاوري، لا تخبر الناس بهذه القصة الآن. عبد الرحمن رجل طيب، لكن الناس ليسوا سواء. قد يأتي من يطمع في الذهب، لا في البركة والرحمة.'

وعدته ألا أخبر أحداً بالقصة في حياته. لكن بعد وفاته، انتشرت القصة بين الناس، وأصبحت من أشهر كرامات سيدي الشيخ. وأصبح الناس يطلقون على الكيس الصغير اسم 'الزكيبة'، تيمناً بزكيبة سيدي الشيخ.

أما عبد الرحمن، فقد استثمر الذهب المتبقي في شراء قطعة أرض صغيرة، وبدأ يزرعها بنفسه. وبفضل بركة سيدي الشيخ، أصبحت أرضه من أخصب الأراضي في المنطقة، وتحسنت أحواله، وأصبح من الميسورين. لكنه لم ينس فضل سيدي الشيخ أبداً، وكان يأتي إلى مجلسه كل يوم، ويستمع إلى دروسه، ويساعد الفقراء والمحتاجين، كما ساعده سيدي الشيخ في يوم من الأيام."

توقف مغاوري عن الكلام، وأخذ رشفة من كوب الشاي. كنت مستغرقاً تماماً في القصة، أكاد أرى الأحداث تجري أمام عيني.

"هل هذه قصة حقيقية يا حاج مغاوري؟" سألته، وأنا أعلم أن سؤالي قد يبدو ساذجاً، لكنني كنت أريد أن أتأكد.

ابتسم مغاوري وقال: "كل كلمة قلتها حقيقية يا بني. كنت شاهداً على هذه القصة، ورأيت بعيني كيف تحولت حياة عبد الرحمن من البؤس إلى السعادة، بفضل بركة سيدي الشيخ."

"لكن كيف يمكن تفسير تحول النية إلى ذهب؟ هذا يتجاوز قوانين الطبيعة والفيزياء!"

ضحك مغاوري وقال: "يا بني، العالم أكبر مما نراه ونفهمه. هناك قوانين أخرى، قوانين روحية، لا تخضع للمادة والفيزياء. الأولياء يعيشون وفق هذه القوانين، يرون ما لا نراه، ويفهمون ما لا نفهمه."

صمت للحظات، أفكر في كلامه، ثم سألته: "هل هناك قصص أخرى مشابهة؟ قصص عن كرامات سيدي الشيخ؟"

"بالطبع يا بني. هناك الكثير من القصص. هل تريد أن تسمع قصة البدوي والقهوة؟"

"نعم، بالتأكيد!" قلت بحماس، وأنا أستعد لتدوين قصة جديدة.

أخذ مغاوري نفساً عميقاً، وبدأ يحكي:

"كان ذلك في أحد أيام الصيف الحارة. كان سيدي الشيخ جالساً في مجلسه المعتاد تحت شجرة التوت، يتحدث إلى الناس عن الصبر والرضا بقضاء الله. كان المجلس مزدحماً، والناس يستمعون بانتباه شديد.

فجأة، دخل رجل بدوي، يبدو أنه قادم من الصحراء. كان يرتدي ملابس بدوية تقليدية، وعلى رأسه كوفية، وفي يده عصا طويلة. كان يبدو متعباً ومنهكاً من طول السفر.

وقف البدوي في آخر المجلس، ينظر إلى سيدي الشيخ بفضول. عندما انتهى الدرس، وبدأ الناس في الانصراف، اقترب البدوي من سيدي الشيخ وقال بلهجة بدوية: 'السلام عليكم يا شيخ.'

رد سيدي الشيخ: 'وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أهلاً بك يا أخي. من أين أتيت؟'

قال البدوي: 'أتيت من الصحراء الغربية. سمعت عنك وعن كراماتك، وقطعت مسافة طويلة لأراك.'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'أهلاً بك في بيتك. لكن ليس لي كرامات، أنا عبد فقير إلى الله.'

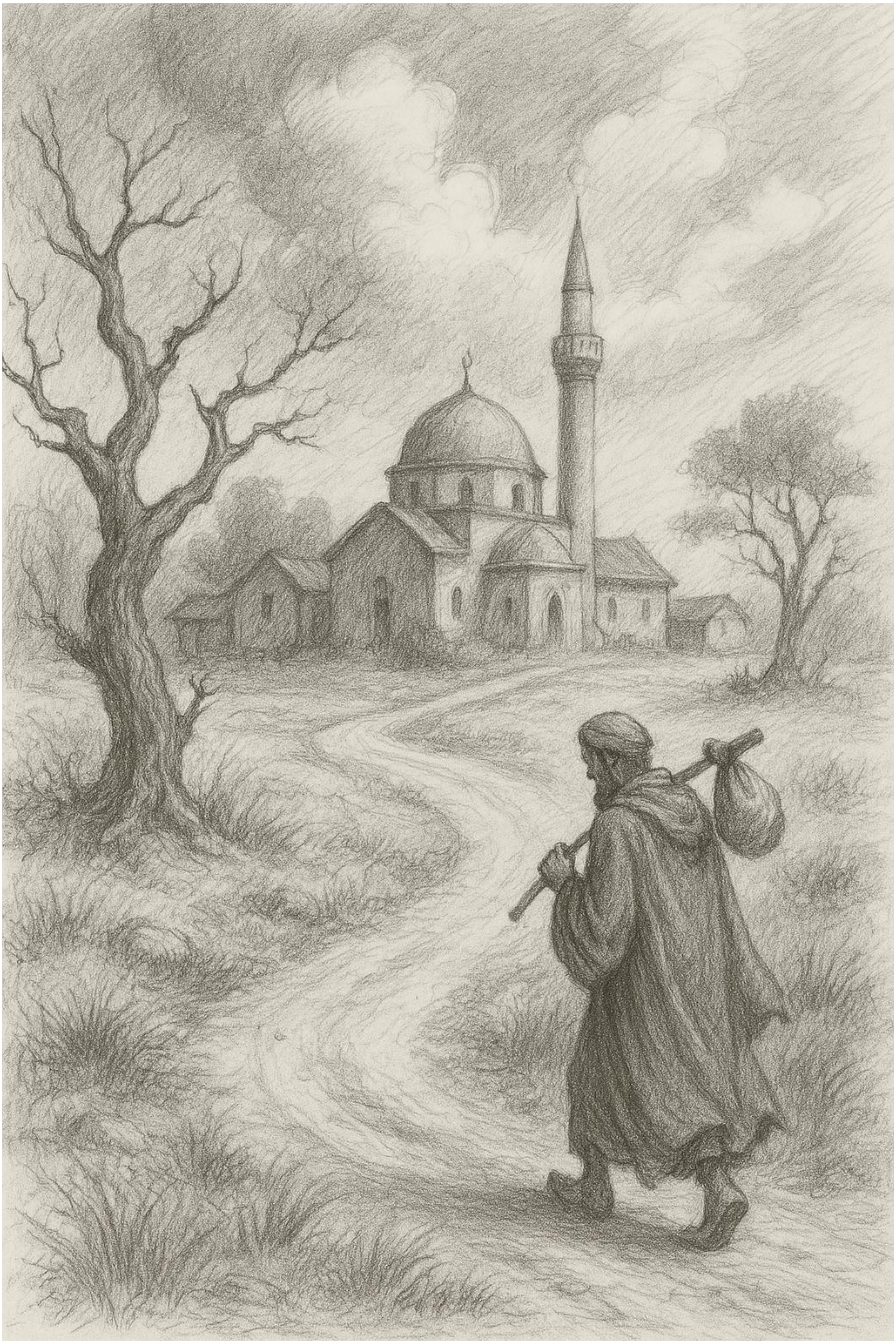

قال البدوي: 'الناس يتحدثون عنك في كل مكان. يقولون إنك تعرف ما في القلوب، وتشفي المرضى، وتحقق الأمنيات.'

ضحك سيدي الشيخ وقال: 'هذه أوهام الناس يا أخي. الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب، ويشفي المرضى، ويحقق الأمنيات. أنا مجرد سبب، والله هو المسبب.'

نظر إليه البدوي بتحدٍ وقال: 'إذا كنت حقاً من أولياء الله، فأخبرني ما الذي أريده الآن؟'

كان سؤالاً صعباً، وكان واضحاً أن البدوي يريد اختبار سيدي الشيخ. لكن سيدي الشيخ ابتسم وقال ببساطة: 'أنت تريد فنجاناً من القهوة. قطعت مسافة طويلة في الصحراء، وأنت عطشان ومتعب، وتشتهي فنجاناً من القهوة البدوية، كما تشربها في خيمتك.'

اتسعت عينا البدوي دهشة، وقال: 'صحيح! كيف عرفت؟'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'هذا ليس مهماً. المهم أن نلبي رغبتك.' ثم التفت إلي وقال: 'يا مغاوري، أحضر لضيفنا فنجاناً من القهوة.'

كنت أعلم أنه لا توجد قهوة في بيت سيدي الشيخ. كان يشرب الشاي فقط، ولم يكن يحب القهوة. لكنني لم أجرؤ على مخالفة أمره، فذهبت إلى بيته، وسألت زوجته، الست حليمة، عن القهوة.

قالت لي: 'لا توجد قهوة في البيت يا مغاوري. سيدي الشيخ لا يشرب القهوة، ولا يوجد من يشربها في البيت.'

عدت إلى سيدي الشيخ، وهمست في أذنه: 'يا سيدي، لا توجد قهوة في البيت.'

ابتسم وقال: 'انظر في الرف العلوي في المطبخ، ستجد علبة قهوة.'

عدت إلى البيت، وبحثت في الرف العلوي في المطبخ، ولدهشتي، وجدت علبة قهوة جديدة، لم تفتح بعد! أخذتها وأريتها للست حليمة، التي كانت مندهشة مثلي تماماً.

'من أين جاءت هذه العلبة؟' سألتني، 'أنا متأكدة أنها لم تكن موجودة صباح اليوم!'

'لا أعرف يا ست حليمة. سيدي الشيخ قال لي إنها ستكون هنا، وها هي.'

أعددت القهوة على الطريقة البدوية، كما تعلمت من بعض البدو الذين كانوا يزورون القرية أحياناً. وضعتها في فنجان جميل، وأخذتها إلى البدوي.

عندما شرب البدوي رشفة من القهوة، اتسعت عيناه دهشة، وقال: 'هذه القهوة تشبه تماماً القهوة التي تعدها زوجتي في الخيمة! نفس المذاق، نفس الرائحة، حتى نفس درجة الحرارة التي أحبها!'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'الحمد لله أنها أعجبتك.'

شرب البدوي القهوة كلها، ثم نظر إلى سيدي الشيخ بعينين دامعتين، وقال: 'أشهد أنك من أولياء الله. لقد جئت لأختبرك، وها أنت تجتاز الاختبار بنجاح.'

ثم أخرج من جيبه كيساً صغيراً، وقال: 'هذه هدية متواضعة مني إليك. إنها بذور نبات نادر ينمو في الصحراء. يقال إنه يشفي من أمراض كثيرة.'

أخذ سيدي الشيخ الكيس، وشكر البدوي، ثم قال له: 'لا تختبر أولياء الله يا أخي. الولي الحقيقي لا يحب الظهور والشهرة. وإذا أردت أن تعرف الولي الحقيقي، فانظر إلى قلبه وأخلاقه، لا إلى كراماته ومعجزاته.'

أطرق البدوي رأسه خجلاً، وقال: 'أستغفر الله يا سيدي. لقد تعلمت درساً لن أنساه أبداً.'

بقي البدوي في القرية عدة أيام، يحضر مجلس سيدي الشيخ، ويستمع إلى دروسه. وعندما حان وقت رحيله، جاء ليودع سيدي الشيخ، وقال له: 'لقد غيرت حياتي يا سيدي. كنت أبحث عن الكرامات والمعجزات، فوجدت الإيمان والحكمة.'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'هذه هي الكرامة الحقيقية يا أخي. أن يتحول الإنسان من الشك إلى اليقين، ومن الغفلة إلى الوعي، ومن الأنانية إلى الإيثار.'

ودع البدوي سيدي الشيخ، وعاد إلى صحرائه، يحمل معه ذكرى لن ينساها أبداً، وإيماناً جديداً سيغير حياته إلى الأبد.

أما بذور النبات النادر التي أهداها البدوي لسيدي الشيخ، فقد زرعها سيدي الشيخ في حديقة صغيرة خلف بيته. ونمت لتصبح نباتاً جميلاً، له زهور بيضاء عطرة، ورائحة زكية. وكان سيدي الشيخ يستخدم أوراقه وزهوره في علاج بعض الأمراض، خاصة أمراض الصدر والربو.

وحتى اليوم، ما زال هذا النبات ينمو في حديقة بيت سيدي الشيخ، وما زال الناس يأخذون من أوراقه وزهوره للعلاج، ويسمونه 'نبات البدوي'، تيمناً بقصة البدوي والقهوة."

توقف مغاوري عن الكلام، وأخذ نفساً عميقاً. كنت مستغرقاً تماماً في القصة، أكاد أشم رائحة القهوة البدوية، وأرى وجه البدوي المندهش.

"هل يمكنني رؤية هذا النبات؟" سألته بفضول.

ابتسم مغاوري وقال: "بالطبع يا بني. سآخذك إلى حديقة بيت سيدي الشيخ بعد قليل، وسأريك النبات. ما زال ينمو هناك، بعد أكثر من سبعين عاماً على زراعته."

"سبعين عاماً! هل يمكن لنبات أن يعيش كل هذه المدة؟"

ضحك مغاوري وقال: "النباتات العادية قد لا تعيش كل هذه المدة. لكن هذا ليس نباتاً عادياً. إنه نبات مبارك، زرعه ولي من أولياء الله، وسقاه بماء زمزم، ودعا له بالبركة والنماء."

صمت للحظات، أفكر في كل ما سمعته. كانت قصص سيدي الشيخ تفتح لي نافذة على عالم آخر، عالم من الإيمان والروح والبركة، عالم يتجاوز حدود المادة والعقل، عالم يحكمه قانون واحد: الحب.

"هل لديك المزيد من القصص يا حاج مغاوري؟" سألته، متلهفاً لسماع المزيد.

ابتسم وقال: "لدي الكثير من القصص يا بني. لكن لكل يوم قصة. تعال غداً، وسأحكي لك قصة أخرى من قصص سيدي الشيخ، قصة لم يسمعها الكثيرون."

وقفنا لنذهب إلى حديقة بيت سيدي الشيخ، لرؤية نبات البدوي. وبينما كنا نسير، قال لي مغاوري: "تذكر يا كريم، الكرامة الحقيقية ليست في خرق قوانين الطبيعة، بل في خرق قوانين القلب البشري. الكرامة الحقيقية هي أن يتحول الإنسان من الشك إلى اليقين، ومن الخوف إلى الحب، ومن الأنانية إلى الإيثار."

هززت رأسي موافقاً، وأنا أشعر بأن كلماته تلامس شيئاً عميقاً في داخلي. كنت قد بدأت رحلتي مع سيدي الشيخ محمد عيد كباحث متشكك، أريد أن أفهم ظاهرة الأولياء والكرامات. لكنني وجدت نفسي، شيئاً فشيئاً، أتحول إلى مريد ومحب، أرى في قصص سيدي الشيخ ليس مجرد حكايات وأساطير، بل دروساً في الحياة والإيمان والحب.

وبينما كنا نقترب من بيت سيدي الشيخ، شعرت بسلام غريب يغمر قلبي، وكأن روحاً خفية تحيط بي، تحتضنني، تهمس في أذني: "مرحباً بك في عالم الأولياء، عالم البركة والنور والحب."

متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك من الأذى منهم، إنما أجرى الأذى على أيديهم كي لا تكون ساكنا إليهم، أن أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء.

ابن عطاء الله السكندري /الحكم العطائية

الفصل السادس: أصوات من الماضي

مع مرور الأيام، أصبحت زياراتي لمقام سيدي الشيخ محمد عيد جزءاً أساسياً من حياتي. كنت أقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في أبشواي، أجلس مع مغاوري وغيره من محبي الشيخ، أستمع إلى قصصهم وذكرياتهم، وأتعلم منهم دروساً في الإيمان والحكمة والصبر.

في إحدى هذه الزيارات، تعرفت على شخصية جديدة، كان لها تأثير عميق في فهمي لشخصية سيدي الشيخ وتأثيره في حياة الناس. كان ذلك في يوم جمعة دافئ من أيام الربيع، حيث كنت جالساً في فناء المقام مع مغاوري، نستمتع بنسيم العصر العليل، ونشاهد الزوار يأتون ويذهبون.

"انظر،" قال مغاوري فجأة، مشيراً إلى رجل مسن يدخل بوابة المقام، "هذا الأستاذ عبد الحميد، كان مدرساً للغة العربية في مدرسة أبوجنشو، وكان من أقرب أصدقاء سيدي الشيخ."

نظرت إلى الرجل باهتمام. كان في السبعينات من عمره، نحيل الجسم، طويل القامة، يرتدي بدلة قديمة الطراز لكنها نظيفة ومرتبة. كان يمشي ببطء، متكئاً على عصا خشبية، وعلى وجهه ابتسامة هادئة تعكس سلاماً داخلياً عميقاً.

"هل يمكنني التحدث معه؟" سألت مغاوري بحماس.

"بالطبع. الأستاذ عبد الحميد يحب الحديث عن سيدي الشيخ، خاصة مع الشباب المهتمين مثلك."

اقتربنا من الأستاذ عبد الحميد، الذي كان قد جلس على مقعد خشبي تحت شجرة كبيرة. عندما رأى مغاوري، ابتسم ابتسامة واسعة وقال بصوت دافئ: "مغاوري، صديقي القديم! كيف حالك؟"

"الحمد لله يا أستاذ عبد الحميد. أحضرت لك صديقاً جديداً. هذا كريم، من القاهرة، يأتي لزيارة المقام بانتظام، ويهتم كثيراً بقصص سيدي الشيخ."

نظر إلي الأستاذ عبد الحميد بعينين ثاقبتين، وكأنه يقرأ أفكاري. ثم ابتسم وقال: "أهلاً بك يا بني. يسعدني أن أرى شباباً مثلك يهتمون بتراثنا الروحي."

جلست بجانبه، وبدأنا نتحدث. كان الأستاذ عبد الحميد رجلاً مثقفاً، واسع الاطلاع، يجمع بين المعرفة الدينية والثقافة العامة. وكان أسلوبه في الحديث سلساً وجذاباً، يمزج بين الجدية والدعابة، ويستشهد بالشعر والأدب والتاريخ.

"كيف تعرفت على سيدي الشيخ محمد عيد؟" سألته، متلهفاً لسماع قصته.

أغمض الأستاذ عبد الحميد عينيه للحظات، وكأنه يستحضر ذكريات بعيدة، ثم بدأ يحكي:

"كان ذلك في عام 1940، كنت شاباً في العشرين من عمري، أدرس في دار المعلمين بالقاهرة. كنت متأثراً بأفكار العصر، مفتوناً بالفلسفة الغربية والعلوم الحديثة، وكنت أشك في كل ما هو تقليدي أو روحاني. كنت أرى الدين مجرد مجموعة من الطقوس والشعائر، والتصوف مجرد خرافات وأوهام.

في إحدى الإجازات، عدت إلى قريتي، أبشواي، لزيارة أهلي. وفي أحد الأيام، كنت جالساً في مقهى القرية، أقرأ كتاباً في الفلسفة، عندما سمعت بعض الرجال يتحدثون عن الشيخ محمد عيد وكراماته. كانوا يتحدثون عنه بإعجاب وتقدير، ويروون قصصاً عن معجزاته وكراماته.

شعرت بالانزعاج من حديثهم، ورأيت فيه نوعاً من الجهل والتخلف. وبدافع من غرور الشباب وحماسة المتعلم حديثاً، قررت أن أذهب لمقابلة هذا الشيخ، لأثبت لنفسي وللآخرين أنه مجرد دجال يستغل بساطة الناس وسذاجتهم.

في اليوم التالي، ذهبت إلى مجلس الشيخ محمد عيد. كان يجلس تحت شجرة كبيرة، محاطاً بعدد من المريدين والزوار. كان رجلاً في الخمسينات من عمره، متوسط القامة، نحيل الجسم، له لحية بيضاء قصيرة، وعينان عميقتان تشعان نوراً وحكمة.

جلست في آخر المجلس، أستمع إليه وهو يتحدث عن الصبر والرضا بقضاء الله. كان حديثه بسيطاً، لكنه كان عميقاً ومؤثراً. كان يستشهد بآيات من القرآن وأحاديث نبوية، ويشرحها بأسلوب سهل وواضح، ويربطها بواقع الناس وحياتهم اليومية.

بعد انتهاء المجلس، قررت أن أختبره. اقتربت منه وقلت بنبرة متعالية: 'يا شيخ، أنا طالب في دار المعلمين، وقد درست الفلسفة والمنطق، ولدي بعض الأسئلة التي أريد أن أطرحها عليك.'

نظر إلي الشيخ بعينين هادئتين، وابتسم ابتسامة لطيفة، وقال: 'أهلاً بك يا بني. اسأل ما شئت، وسأجيبك بما أعلم.'

بدأت أطرح عليه أسئلة صعبة ومعقدة، عن الإيمان والعقل، عن القضاء والقدر، عن الروح والمادة، عن الحياة والموت. كنت أستخدم مصطلحات فلسفية معقدة، وأستشهد بأقوال فلاسفة غربيين، محاولاً إحراجه وإظهار جهله.

لكن الشيخ محمد عيد فاجأني بردوده. كان يستمع إلي باهتمام، ثم يجيب بهدوء وثقة، بأسلوب بسيط وواضح، لكنه عميق ومقنع. كان يرد على أسئلتي الفلسفية المعقدة بإجابات بسيطة، مستمدة من القرآن والسنة والتراث الإسلامي، لكنها كانت تلامس جوهر المسألة وتكشف عن فهم عميق.

استمر النقاش لساعات، وكلما طرحت سؤالاً، كان يجيب بحكمة وعمق، حتى شعرت بالإحراج والخجل من نفسي. أدركت أنني كنت متعجرفاً ومتعالياً، وأنني كنت أحكم على الرجل دون أن أعرفه حقاً.

في نهاية النقاش، نظر إلي الشيخ بعينين مليئتين بالرحمة والشفقة، وقال: 'يا بني، العلم ليس بكثرة القراءة، بل بنور يقذفه الله في القلب. وأنت شاب ذكي ومتعلم، لكن قلبك مظلم بالغرور والشك. اطلب العلم، لكن لا تنس تزكية نفسك وتطهير قلبك.'

شعرت بكلماته تخترق قلبي كالسهم. كانت صادقة ومباشرة، لكنها كانت مليئة بالحب والرحمة. لم أستطع الرد، فنهضت وانصرفت، وأنا أشعر بمزيج من الغضب والخجل والحيرة.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. كنت أفكر في كلمات الشيخ، وفي ردوده على أسئلتي، وفي نظرته العميقة التي كانت تخترق روحي. شعرت بأنني قابلت رجلاً مختلفاً، رجلاً يملك حكمة وعلماً لا يأتيان من الكتب والدراسة فقط، بل من مصدر آخر، مصدر أعمق وأنقى.

في صباح اليوم التالي، عدت إلى مجلس الشيخ، لكن هذه المرة بروح مختلفة. جلست في المجلس، أستمع إليه بانتباه واحترام. وبعد انتهاء المجلس، اقتربت

منه وقلت بتواضع: 'يا سيدي الشيخ، أعتذر عن سوء أدبي بالأمس. لقد كنت متعجرفاً ومتعالياً.'

ابتسم الشيخ وقال: 'لا عليك يا بني. الشباب مرحلة من مراحل الحياة، لها حماستها واندفاعها. المهم أن تتعلم وتنمو.'

منذ ذلك اليوم، أصبحت من مريدي الشيخ محمد عيد. كنت أحضر مجلسه كلما سنحت لي الفرصة، وأستمع إلى دروسه وحكمه. وكلما تعمقت في معرفته، اكتشفت جوانب جديدة من شخصيته وعلمه.

كان الشيخ محمد عيد رجلاً استثنائياً، يجمع بين العلم والعمل، بين الروحانية والواقعية. كان عالماً بالدين، حافظاً للقرآن، متقناً للفقه والحديث، لكنه كان أيضاً عارفاً بأحوال الناس ومشاكلهم، متفهماً لظروفهم واحتياجاتهم.

كان يؤمن بأن الدين ليس مجرد طقوس وشعائر، بل هو منهج حياة متكامل، يشمل العبادة والمعاملة والأخلاق. وكان يرى أن التصوف الحقيقي ليس انعزالاً عن الحياة، بل هو انخراط فيها بروح إيمانية عميقة.

كان يقول دائماً: 'الصوفي الحقيقي ليس من يلبس المرقعات ويعتزل الناس، بل من يعيش بينهم، يشاركهم همومهم وآلامهم، ويساعدهم على تجاوز صعوباتهم.'

تعلمت من الشيخ محمد عيد دروساً كثيرة، لكن أهمها كان درس التواضع والإخلاص. كان يقول: 'العلم بلا تواضع كشجرة بلا ثمار، والعمل بلا إخلاص كجسد بلا روح.'

بفضل الشيخ محمد عيد، تغيرت نظرتي للدين والحياة. أدركت أن الإيمان ليس ضد العقل، بل هو تكامل معه. وأن التصوف ليس هروباً من الواقع، بل هو غوص في أعماقه. وأن الحكمة ليست في كثرة المعرفة، بل في عمقها وتأثيرها في النفس والسلوك.

بعد تخرجي من دار المعلمين، عدت إلى أبشواي، وعملت مدرساً للغة العربية في مدرستها الوحيدة. وكنت أزور الشيخ محمد عيد بانتظام، أستشيره في أموري، وأستفيد من علمه وحكمته.

وعندما توفي الشيخ في عام 1952، شعرت بحزن عميق، كأنني فقدت أباً ومعلماً ومرشداً. لكنني وجدت العزاء في تعاليمه وحكمه التي ظلت حية في قلبي وعقلي. وقررت أن أكرس جزءاً من حياتي لنشر تعاليمه وحكمه بين الناس، خاصة الشباب."

توقف الأستاذ عبد الحميد عن الكلام، وأخذ نفساً عميقاً. كنت مستغرقاً تماماً في قصته، أشعر وكأنني كنت حاضراً في تلك اللحظات، أرى الشيخ محمد عيد، وأسمع كلماته، وأشعر بتأثيره العميق.

"هل كتبت شيئاً عن الشيخ محمد عيد وتعاليمه؟" سألته بفضول.

ابتسم الأستاذ عبد الحميد وقال: "نعم، كتبت كتاباً صغيراً بعنوان 'حكم ومواعظ الشيخ محمد عيد'. جمعت فيه بعض أقواله وحكمه التي سمعتها منه مباشرة، أو نقلها عنه تلاميذه ومريدوه. طبعت منه نسخاً قليلة على نفقتي الخاصة، ووزعتها على محبي الشيخ ومريديه."

"هل يمكنني الحصول على نسخة من هذا الكتاب؟" سألته بلهفة.

"للأسف، نفدت النسخ منذ سنوات. لكن لدي نسخة واحدة، هي نسختي الشخصية. سأعيرها لك لتقرأها، ثم تعيدها لي."

شكرته بحرارة، ووعدته بالمحافظة على الكتاب وإعادته إليه. ثم سألته: "هل يمكنك أن تحدثني عن بعض الشخصيات الأخرى التي كانت قريبة من الشيخ محمد عيد؟"

فكر الأستاذ عبد الحميد للحظات، ثم قال: "كان للشيخ محمد عيد العديد من المريدين والأصدقاء، من مختلف الطبقات والمستويات. كان هناك الحاج محمود، تاجر الحبوب، الذي كان من أكثر المخلصين للشيخ، وكان ينفق بسخاء على الفقراء والمحتاجين بتوجيه من الشيخ.

وكان هناك الدكتور حسن، طبيب القرية، الذي كان يعالج المرضى مجاناً، ويستشير الشيخ في الحالات الصعبة. وكان الشيخ يرسل إليه بعض المرضى الذين يحتاجون إلى علاج طبي، بعد أن يدعو لهم بالشفاء.

وكان هناك الشيخ إبراهيم، إمام مسجد القرية، الذي كان صديقاً حميماً للشيخ محمد عيد، رغم اختلاف منهجيهما في بعض الأمور. كان الشيخ إبراهيم يميل إلى المنهج السلفي، ويركز على الجوانب الفقهية والشرعية، بينما كان الشيخ محمد عيد يميل إلى المنهج الصوفي، ويركز على الجوانب الروحية والأخلاقية. لكنهما كانا يحترمان بعضهما البعض، ويتعاونان في خدمة الناس وتعليمهم.

وكان هناك أيضاً بعض الشخصيات النسائية المهمة في حياة الشيخ محمد عيد. كانت هناك الحاجة فاطمة، زوجته الأولى، التي كانت امرأة صالحة، تقية، تساعده في دعوته وخدمة الناس. وكانت هناك الحاجة زينب، وهي امرأة أرملة، كانت تعمل في خدمة بيت الشيخ، وكانت معروفة بحكمتها وصبرها.

لكن أقرب الناس إلى قلب الشيخ محمد عيد، بعد زوجتيه، كان مغاوري، الذي كان بمثابة ابنه الروحي وخليفته من بعده. كان مغاوري شاباً يتيماً، تبناه الشيخ وعلمه ورباه، وكان يصحبه في كل مكان، ويتعلم منه العلم والحكمة والأخلاق."

نظرت إلى مغاوري، الذي كان يستمع إلى حديث الأستاذ عبد الحميد بابتسامة خجولة. كان واضحاً أنه يشعر بالحرج من الثناء عليه.

"هل هذا صحيح يا حاج مغاوري؟ هل كنت الأقرب إلى قلب سيدي الشيخ؟" سألته.

أطرق مغاوري رأسه بتواضع وقال: "سيدي الشيخ كان يحب الجميع، وكان قلبه يتسع للجميع. أنا كنت مجرد خادم له، أتعلم منه وأستفيد من علمه وحكمته."

ابتسم الأستاذ عبد الحميد وقال: "هذا هو التواضع الذي تعلمناه من سيدي الشيخ. مغاوري كان بالفعل الأقرب إلى قلب الشيخ، وكان الشيخ يثق به ثقة كبيرة، ويكلفه بمهام خاصة، ويشاركه أسراراً لم يشاركها مع غيره."

ثم التفت إلي وقال: "هل تعرف يا كريم، أن مغاوري هو الوحيد الذي كان مع سيدي الشيخ في لحظاته الأخيرة؟ هو الذي أغمض عينيه، وغسله، وكفنه، ودفنه. وهو الذي بنى هذا المقام، بناءً على وصية سيدي الشيخ."

نظرت إلى مغاوري بإعجاب وتقدير. كان رجلاً بسيطاً، متواضعاً، لكنه كان يحمل إرثاً روحياً عظيماً، ويحافظ عليه بكل أمانة وإخلاص.

"هل يمكنك أن تحدثني عن اللحظات الأخيرة في حياة سيدي الشيخ؟" سألت مغاوري.

تنهد مغاوري بعمق، وبدت على وجهه علامات الحزن والألم، رغم مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة الشيخ. ثم بدأ يحكي بصوت خافت، مليء بالعاطفة:

"كان ذلك في ليلة من ليالي رمضان عام 1952. كان سيدي الشيخ قد أتم صلاة التراويح في المسجد، ثم عاد إلى بيته. كان يبدو متعباً قليلاً، لكنه كان كعادته، هادئاً، مبتسماً، يذكر الله ويسبحه.

جلس على سجادة صلاته، وطلب مني أن أحضر له كوباً من الماء. عندما عدت بالماء، وجدته يقرأ سورة يس. شرب قليلاً من الماء، ثم نظر إلي وقال: 'يا مغاوري، أشعر أن وقتي قد حان. الليلة سألتقي بربي.'

شعرت بخوف شديد، وقلت له: 'لا تقل هذا يا سيدي. أنت بخير، والحمد لله.'

ابتسم وقال: 'الموت حق يا مغاوري، والعاقل من استعد له. وأنا مشتاق للقاء ربي.'

ثم أمسك بيدي وقال: 'يا مغاوري، أوصيك بأمرين: الأول، أن تبني لي مقاماً بسيطاً، ليس للتفاخر أو التباهي، بل ليكون مكاناً يجتمع فيه محبي ومريدي، يذكرون الله ويتدارسون العلم. والثاني، أن تحافظ على إرثي وتعاليمي، وتنقلها للأجيال القادمة، بكل أمانة وإخلاص.'

وعدته بتنفيذ وصيته، وجلست بجانبه، أقرأ له القرآن، وهو يستمع بخشوع وتدبر. وفي الساعات الأولى من الفجر، أغمض عينيه، ونطق الشهادتين، ثم فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها.

غسلته بيدي، وكفنته، وصلينا عليه صلاة الجنازة في مسجد القرية، ثم دفناه في مقبرة القرية. كان يوماً حزيناً، بكى فيه الجميع، حتى الأطفال والحيوانات. كان الناس يشعرون أن نوراً قد انطفأ، وأن بركة قد رفعت.

بعد وفاته، بدأت في تنفيذ وصيته. جمعت التبرعات من محبيه ومريديه، وبنيت هذا المقام البسيط. وبدأت في جمع أقواله وحكمه، ونشرها بين الناس. وفتحت بيتي لكل من يريد أن يعرف عن سيدي الشيخ وتعاليمه."

توقف مغاوري عن الكلام، ومسح دمعة تسللت من عينه. كان الأستاذ عبد الحميد صامتاً، يستمع بخشوع، وكأنه يعيش تلك اللحظات من جديد.

جلسنا صامتين للحظات، كل منا غارق في أفكاره ومشاعره. كنت أفكر في هذا الرجل الاستثنائي، الذي عاش حياة بسيطة، لكنه ترك أثراً عميقاً في حياة الكثيرين، حتى بعد رحيله بعقود.

"هل تعرف يا كريم،" قال الأستاذ عبد الحميد فجأة، كاسراً الصمت، "أن سيدي الشيخ كان يتنبأ بالمستقبل أحياناً؟ كان يرى أحداثاً قبل وقوعها، ويحذر الناس منها."

"هل يمكنك أن تعطيني مثالاً؟" سألته بفضول.

"في عام 1951، قبل وفاته بعام واحد، جمع سيدي الشيخ مريديه وقال لهم: 'أرى تغييراً كبيراً سيحدث في مصر. سيأتي رجال يلبسون الزي العسكري، ويغيرون نظام الحكم. سيكون هناك فترة من الاضطراب والقلق، ثم تستقر الأمور. لكن احذروا، فإن التغيير الحقيقي ليس في الشكل، بل في الجوهر. وإن الإصلاح الحقيقي يبدأ من النفس، لا من السلطة.'

بعد وفاة سيدي الشيخ بأشهر قليلة، قامت ثورة يوليو 1952، وتغير نظام الحكم في مصر، تماماً كما تنبأ سيدي الشيخ."

"هذا مذهل!" قلت بدهشة، "هل كان يتنبأ بأمور شخصية أيضاً؟"

"نعم، كان يعرف أحياناً ما سيحدث للأشخاص قبل أن يحدث. في إحدى المرات، جاءه شاب يشكو من ضيق الحال وقلة الرزق. نظر إليه سيدي الشيخ وقال: 'اصبر يا بني، فإن الله سيفتح عليك أبواب الرزق قريباً. سترث من عمك الذي في الإسكندرية مالاً كثيراً.'

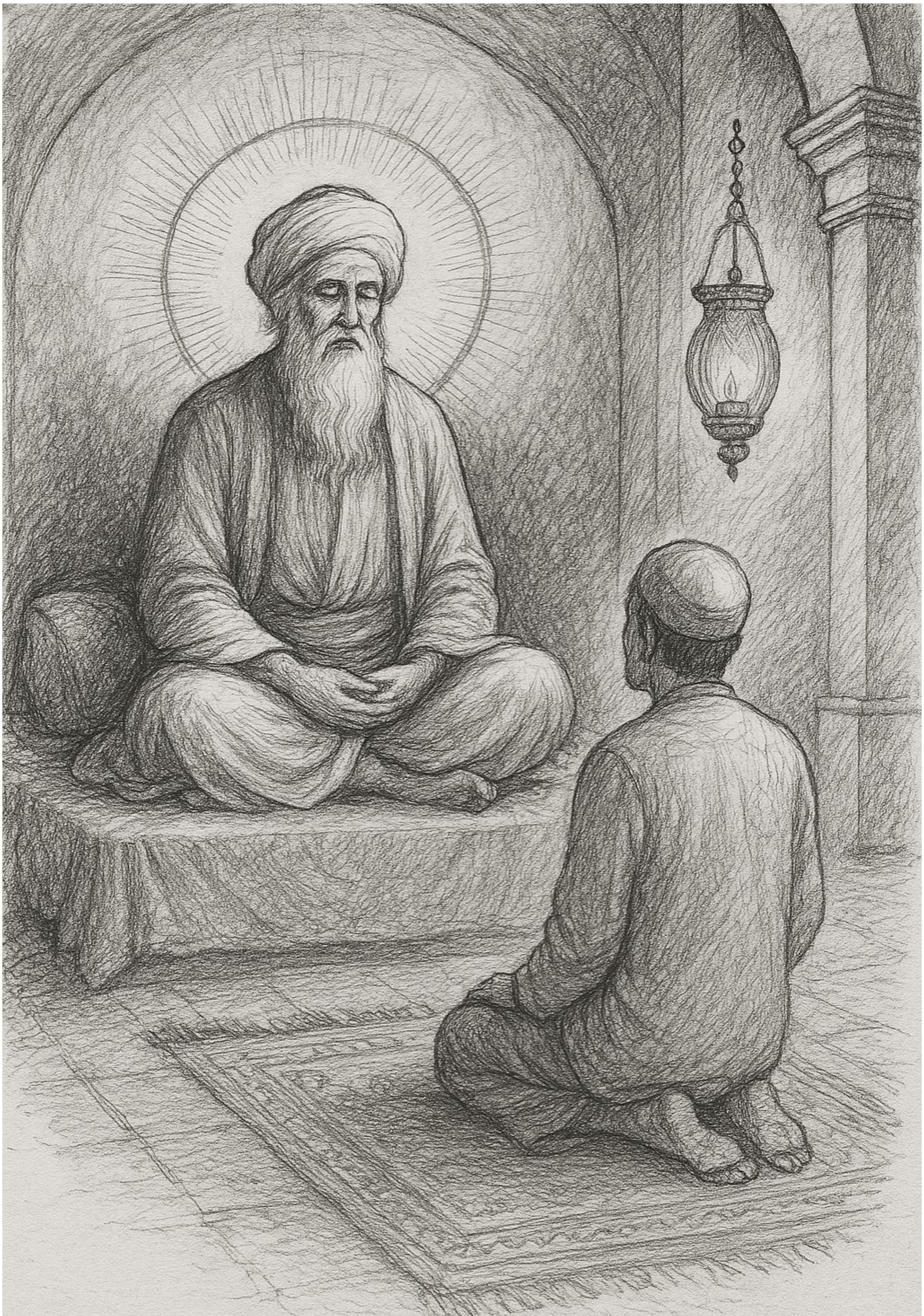

تعجب الشاب، وقال: 'ليس لي عم في الإسكندرية يا سيدي!'

ابتسم سيدي الشيخ وقال: 'بلى، لك عم من جهة أمك، اسمه أحمد، هاجر إلى الإسكندرية قبل أن تولد، وقطع علاقته بالعائلة. وهو الآن على فراش الموت، وقد أوصى بثلث ماله لك.'

بعد أسبوع واحد، جاء رجل غريب إلى القرية، يبحث عن هذا الشاب. كان محامياً من الإسكندرية، وأخبر الشاب أن عمه، الذي لم يكن يعرف عن وجوده شيئاً، قد توفي وترك له ثلث ثروته، وهو مبلغ كبير."

استمعت إلى هذه القصص بانبهار، وشعرت بأنني أقترب أكثر فأكثر من فهم شخصية هذا الرجل الاستثنائي، الذي كان يعيش في عالمين: عالم المادة الذي نعرفه جميعاً، وعالم الروح الذي لا يراه إلا القليلون.

"هل كان سيدي الشيخ يتحدث عن تجاربه الروحية؟" سألت الأستاذ عبد الحميد.

"نادراً جداً. كان يفضل الحديث عن الأمور العملية والأخلاقية، التي تفيد الناس في حياتهم اليومية. لكنه في بعض الأحيان، في مجالس خاصة جداً، مع بعض المقربين، كان يتحدث عن تجارب روحية عميقة، عن رؤى ومشاهدات، عن عوالم وأبعاد لا يدركها العقل العادي."

"هل يمكنك أن تحدثني عن بعض هذه التجارب؟" سألته بلهفة.

نظر إلي الأستاذ عبد الحميد بعمق وقال: "هذه أمور لا يمكن فهمها بالعقل وحده، بل تحتاج إلى قلب مفتوح وروح متيقظة. وأنت ما زلت في بداية الطريق يا بني. استمر في زيارة المقام، واقرأ كتاب 'حكم ومواعظ الشيخ محمد عيد'، وتأمل في معانيه وحكمه. وعندما يرى الله أنك مستعد، سيفتح لك أبواباً من المعرفة والفهم لم تكن تتخيلها."

أخذت الكتاب من الأستاذ عبد الحميد، وشكرته على وقته وحديثه. وعدته بأن أقرأ الكتاب بعناية، وأن أعيده إليه في زيارتي القادمة.

في طريق العودة إلى القاهرة، كنت أفكر في كل ما سمعته من الأستاذ عبد الحميد ومغاوري. كانت قصصهم تفتح لي نافذة على عالم آخر، عالم من الروح والإيمان والحكمة، عالم كنت أظنه بعيداً ومستحيلاً، لكنني بدأت أشعر أنه قريب وممكن.

وبينما كانت سيارتي تشق طريقها عبر الحقول الخضراء، والشمس تغرب في الأفق، شعرت بسلام غريب يغمر قلبي، وكأن روحاً خفية ترافقني، تحميني، ترشدني، تهمس في أذني: "الطريق طويل، لكنه مليء بالنور والجمال. استمر، ولا تتوقف، حتى تصل إلى الحقيقة."

"أنت لا تحب أن تعبر النهر، أنت تريد أن تصبح المحيط."

- جلال الدين الرومي

الخاتمة: نور لا ينطفئ

في آخر زيارة لي للمقام، كان الخريف قد بدأ يلقي بظلاله على الطبيعة. أوراق الأشجار تتلون بألوان الذهب والبرتقالي، والنسيم يحمل برودة خفيفة تنذر بقدوم الشتاء. وصلت إلى المقام في وقت متأخر من العصر، حيث كانت الشمس تميل للغروب، ملقية بأشعتها الذهبية على قبة المقام، فتبدو كأنها مصنوعة من الذهب الخالص.

كان المقام هادئاً، خالياً من الزوار، باستثناء رجل مسن يجلس في الركن البعيد، يقرأ القرآن بصوت خافت. اقتربت منه، وعرفت أنه مغاوري، الذي أصبح أكبر سناً وأكثر نحافة، لكن عينيه ما زالتا تشعان بنفس النور والحكمة.

"مغاوري!" ناديته بفرح، "كيف حالك يا صديقي العزيز؟"

رفع رأسه، ونظر إلي للحظات، ثم ابتسم ابتسامة واسعة، وقال: "كريم! يا مرحباً بك يا بني. اشتقت إليك كثيراً."

جلست بجانبه، وبدأنا نتحدث عن السنوات التي مرت، وعن التغيرات التي حدثت في حياتنا وفي العالم من حولنا. أخبرته عن عملي الجديد، وعن زواجي، وعن ابني الصغير الذي سميته "محمد" تيمناً بسيدي الشيخ محمد عيد.

"وكيف حالك أنت يا مغاوري؟" سألته، "أراك أكبر سناً، لكنك ما زلت بخير والحمد لله."

تنهد بعمق وقال: "الحمد لله على كل حال. الجسد يضعف مع تقدم العمر، لكن الروح تقوى وتزداد إشراقاً. كلما اقتربت من نهاية الرحلة، كلما اتضحت لي معالم الطريق أكثر."

صمت للحظات، ثم أضاف: "لقد أصبحت أرى سيدي الشيخ في المنام كثيراً. يأتيني مبتسماً، ويقول لي: 'استعد يا مغاوري، فإن الموعد قد اقترب.' وأنا مستعد للقائه، مشتاق إليه."

شعرت بحزن يعتصر قلبي. فكرة أن أفقد مغاوري، صديقي ومرشدي، كانت مؤلمة. لكنني حاولت أن أخفي حزني، وقلت: "لا تقل هذا يا مغاوري. ما زال أمامك سنوات طويلة بإذن الله."

ابتسم وقال: "الموت ليس نهاية يا كريم، بل هو بداية. نهاية رحلة، وبداية رحلة أخرى. نهاية حياة، وبداية حياة أخرى. الموت هو الباب الذي نعبر منه من عالم الظلال إلى عالم الحقائق."

ثم أمسك بيدي وقال: "لكن قبل أن أرحل، أريد أن أعطيك شيئاً."

أخرج من جيبه كيساً صغيراً من القماش، وناوله لي. كان خفيفاً جداً، يكاد يكون فارغاً.

"ما هذا؟" سألته بفضول.

"هذه هي الزكيبة يا كريم. زكيبة سيدي الشيخ."

شعرت بدهشة كبيرة. "الزكيبة؟! زكيبة سيدي الشيخ الحقيقية؟"

"نعم. لقد احتفظت بها طوال هذه السنوات، كأمانة غالية. والآن، حان الوقت لأسلمها إليك."

"لكن لماذا أنا؟ أنا لست من أهل البلد، ولا من أقارب سيدي الشيخ."

ابتسم وقال: "سيدي الشيخ أخبرني في المنام أن أعطيك الزكيبة. قال لي: 'كريم هو الذي سينقل قصتنا للعالم. هو الذي سيحمل الأمانة من بعدك.'"

أخذت الزكيبة بيدين مرتعشتين، وشعرت بمسؤولية كبيرة تلقى على عاتقي. كيف يمكنني أن أكون أهلاً لهذه الأمانة؟

كأنه قرأ أفكاري، فقال: "لا تقلق يا كريم. الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وسيدي الشيخ لن يختارك إلا إذا كنت أهلاً للاختيار."

ثم أضاف: "الزكيبة ليست مجرد كيس من القماش. إنها رمز للبركة والعطاء. رمز للإيمان الذي يحول القليل إلى كثير، والصغير إلى كبير. احتفظ بها، واحملها معك أينما ذهبت، وستجد فيها ما يكفيك ويكفي من تحب."

وضعت الزكيبة في جيبي، وشعرت بدفء غريب يسري في جسدي كله. كان شعوراً لم أختبره من قبل، مزيجاً من السلام والطمأنينة والقوة.

"شكراً لك يا مغاوري. سأحافظ على هذه الأمانة، وسأنقل قصة سيدي الشيخ للعالم، كما طلب."

ابتسم وقال: "أعرف أنك ستفعل. لقد رأيت في عينيك منذ اللقاء الأول نوراً خاصاً، نوراً يشبه نور سيدي الشيخ. نور الإيمان والحب والحكمة."

جلسنا صامتين للحظات، نتأمل غروب الشمس، ونستمع إلى صوت العصافير وهي تعود إلى أعشاشها. كان مشهداً ساحراً، مليئاً بالسلام والجمال.

"هل تعرف يا كريم،" قال مغاوري فجأة، "أن سيدي الشيخ كان يقول دائماً: 'الإنسان مثل الشمس، يولد كل يوم من جديد. كل صباح هو فرصة جديدة، بداية جديدة، ولادة جديدة.'"

نظرت إلى الشمس وهي تغرب، وفكرت في كلمات سيدي الشيخ. الشمس تغرب لتشرق من جديد. تموت لتولد من جديد. وهكذا الإنسان، يموت ليولد من جديد، في عالم آخر، حياة أخرى.

"وكان يقول أيضاً،" أضاف مغاوري، "'الحياة مثل النهر، تجري دائماً إلى الأمام، لا تعود إلى الوراء أبداً. لكن مياه النهر، عندما تصل إلى البحر، تتبخر وتصعد إلى السماء، ثم تعود مطراً، ليغذي النهر من جديد. وهكذا الحياة، دورة متصلة، لا بداية لها ولا نهاية.'"

فكرت في هذه الحكمة العميقة، وشعرت بأنني أفهم الحياة والموت بطريقة جديدة. الموت ليس نهاية، بل هو جزء من دورة الحياة الكبرى. جزء من رحلة الروح الأبدية.

"هل تعرف ما هي آخر كلمات قالها سيدي الشيخ قبل وفاته؟" سألني مغاوري.

هززت رأسي نفياً.

"قال: 'النور لا ينطفئ أبداً. قد يخفت، قد يتوارى، لكنه لا ينطفئ أبداً. النور الإلهي موجود في كل إنسان، في كل مخلوق، في كل ذرة من ذرات الكون. ابحثوا عنه، ستجدونه. اتبعوه، سيقودكم إلى الحقيقة.'"

شعرت بكلماته تخترق قلبي كالسهم، وتستقر في أعماقي. النور لا ينطفئ أبداً. النور موجود في داخلي، في داخل كل إنسان. علي فقط أن أبحث عنه، أن أتبعه، وسيقودني إلى الحقيقة.

"شكراً لك يا مغاوري. شكراً لك على كل ما علمتني إياه. شكراً لك على هذه الرحلة الرائعة."

ابتسم وقال: "لا تشكرني أنا يا كريم. اشكر الله الذي هداك إلى هذا الطريق. واشكر سيدي الشيخ الذي كان سبباً في لقائنا."

ثم أضاف: "والآن، عليك أن تواصل الرحلة. عليك أن تنقل ما تعلمته إلى الآخرين. عليك أن تكون مصباحاً ينير الطريق للتائهين، كما كان سيدي الشيخ."

وعدته بأن أفعل، وودعته بقلب مليء بالحب والامتنان. وبينما كنت أغادر المقام، التفت للوراء لألقي نظرة أخيرة على مغاوري. كان جالساً تحت شجرة التوت، يقرأ القرآن، وحوله هالة من النور الذهبي، تشبه تماماً الهالة التي كانت تحيط بسيدي الشيخ في الصور القديمة.

في طريق العودة إلى القاهرة، كنت أفكر في كل ما حدث لي منذ زيارتي الأولى لمقام سيدي الشيخ. كيف تغيرت حياتي، كيف تغيرت نظرتي للعالم، كيف تغير قلبي وروحي.

كنت قد بدأت رحلتي كباحث متشكك، أريد أن أفهم ظاهرة الأولياء والكرامات من منظور علمي وموضوعي. لكنني وجدت نفسي، شيئاً فشيئاً، أتحول إلى مريد ومحب، أرى في قصص سيدي الشيخ ليس مجرد حكايات وأساطير، بل دروساً في الحياة والإيمان والحب.

وبينما كانت سيارتي تشق طريقها عبر الظلام، وضعت يدي في جيبي، وأخرجت الزكيبة. كانت خفيفة جداً، تكاد تكون فارغة. لكنني شعرت بأنها تحمل كنزاً ثميناً، كنزاً لا يقدر بثمن: كنز الإيمان والحب والحكمة.

فتحت الزكيبة بيدين مرتعشتين، وأخرجت ما بداخلها. كانت ورقة صغيرة، مطوية بعناية. فتحتها، وقرأت ما كتب عليها بخط جميل:

"النور لا ينطفئ أبداً. ابحث عنه في قلبك، ستجده. اتبعه، سيقودك إلى الحقيقة."

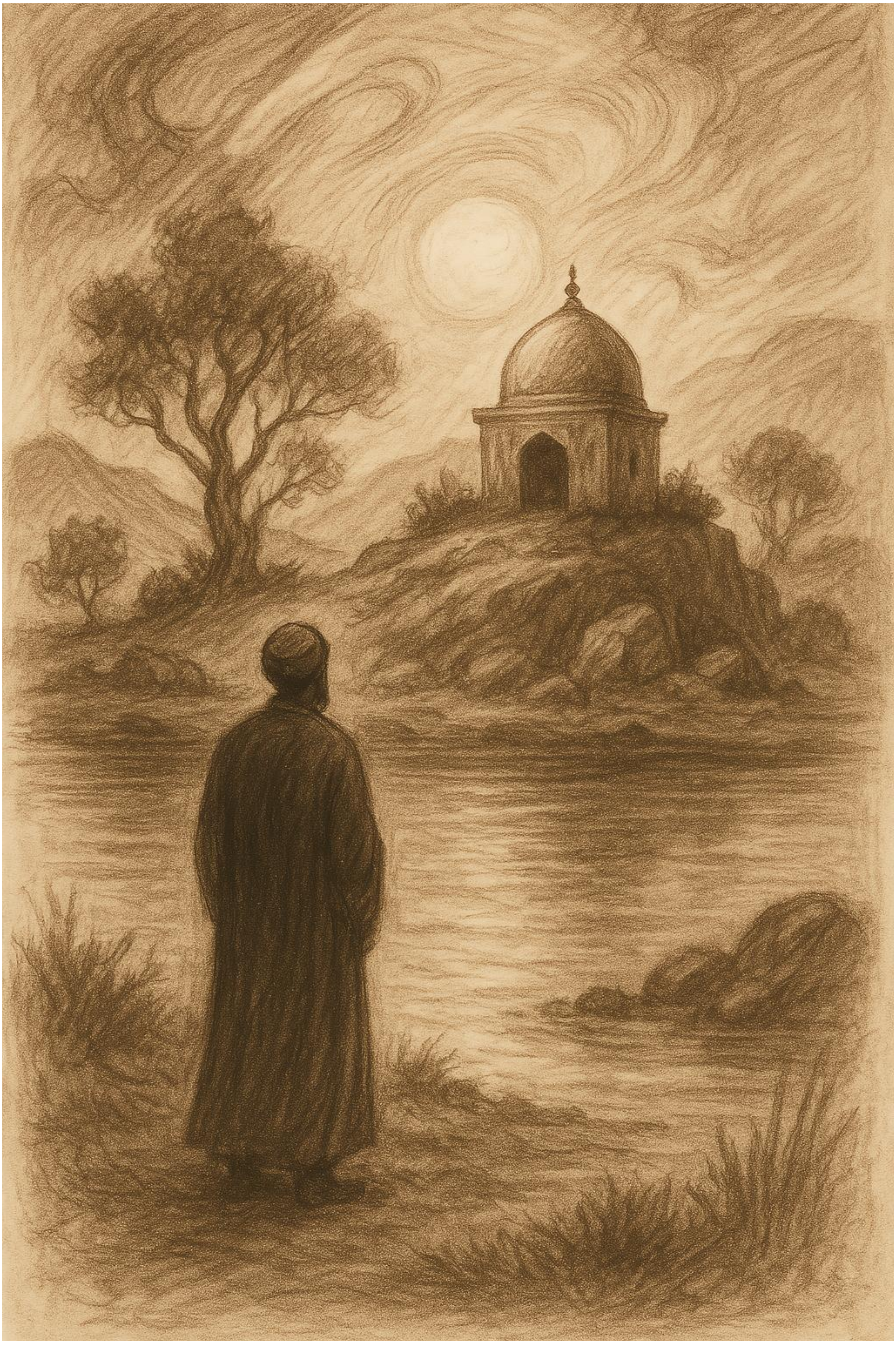

ابتسمت، وأعدت الورقة إلى الزكيبة، ووضعتها في جيبي، قريبة من قلبي. وبينما كانت سيارتي تقترب من القاهرة، والفجر يلوح في الأفق، شعرت بسلام عميق يغمر قلبي، وكأن روحاً خفية تحيط بي، تحميني، ترشدني، تهمس في أذني:

"النور لا ينطفئ أبداً."

****تمت بحمد الله****